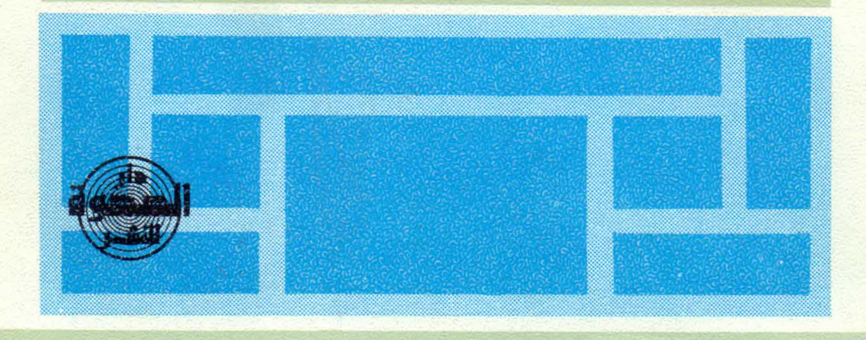
دكتور محسن عبد الحميد

أزمة المثقفين تجاه الإسلام



هذا الكتاب

فى القرن الأخير حدث الانفصام الكبير بين المثقفين المسلمين المحدثين وبين إسلامهم .

لم يعد الإسلام فى العصر الحديث هو الوجه الأساسى ، ولم تعد قاعدته الحضارية هى القاعدة التى ينطلق منها المسلمون لمواجهة الحياة الحضارية الجديدة التى نتجت عن احتكاكهم بالعالم الغربى .

يا ترى !! ... ما الذى وقع ؟ وكيف حدث الانفصام ؟ وهل كان ذلك مصادفة وبلا مقدمات ؟ وما هى الأسباب الكامنة التى غيرت من حياة المسلمين ؟ .

هذا الكتاب دراسة لوضع أيدينا على جذور الأزمة الثقافية والحضارية فى المجتمع الإسلامى الحديث ، وتصف فى ذكاء وإيمان العلاج الناجح لأمراضنا ..

دار الصحوة

٧ ش السراى بالمنيل . ت : ٩٨٧٩٢٤

حدائق حلوان . ت : ٦٨٨٠٧١

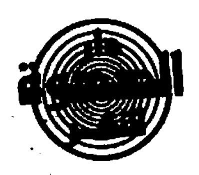
القاهرة

أزمة المثقفين تجاه الإسلام

في العصر الحديث

تأليف

الدكتور محسن عبد الحميد



الطبعة الأولى

سنة ١٤٠٥ هـ سنة ١٩٨٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، وآله وصحبه أجمعين .

أما بعد :

فأصل هذا الكتاب كان محاضرة ارتجالية ألقيتها فى الموسم الثقافى لعام ١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤ م فى كلية الآداب بمكناس ، ثم ألقيتها فى العام نفسه بكلية الآداب بجدة وقسم الدراسات العليا بكلية الشريعة فى جامعة الإمام الإسلامية بالرياض .

ولقد تبين لى أن هذه المحاضرة نالت والحمد لله تعالى استحسان الحاضرين أساتذة وطلابا وأثارت تساؤلات كثيرة وضجة لم أكن أتوقعها ، وطلب منى كثير من الحاضرين فى تلك الكليات أن أكتب الموضوعات التى عرضتها موجزا ، بشىء من التفصيل حتى يعم نفعها وأتمكن فى عرض جوانب أخرى لم أكن قد تعرضت لها فى المحاضرة العامة .

وهأنذا — والفضل لله وحده — قد وفيت بوعدى لهم بالكتابة المفصلة لتلك المحاضرة ، عرضت فيها أسباب الأزمة مظاهرها وعلاجها ، ودعوت فيها أصحاب الأزمة إلى حوار منهجى منصف ومراجعة علمية حقيقية لمواقفهم الخاطئة أو المعادية فى الإسلام ، دين الله الخاتم الخالد .

وكل ما أرجوه أن أكون قد أصبت الهدف بإثارة هذا الحوار المخلص الهادئ . ومن الله تعالى العون والتأييد والثبات .

المؤلف

د محسن عبدالحميد

٧ من شوال — ١٤٠٤ هـ

الموافق ٦ من يوليو ١٩٨٤م

الباب الأول

أسباب الأزمة

تمهـــيد :

كان الإسلام عبر مراحله التاريخية المتتالية قاعدة انطلاق المسلمين نحو بناء الحضارة ، والموجه الأساسى لحركتهم الفكرية فى مواجهة متغيرات الحياة والقيام بدور الخلافة على وجه الأرض ، فى إطار السنن الإلهية التى أودعها الله سبحانه وتعالى فى الوجود كله .

لم يكن المسلمون مغلقين . فلقد فتحوا عقولهم ومجتمعاتهم لثمار الحضارات الإنسانية وواجهوها مواجهة واعية ، من خلال رؤية عقيدية واضحة ، حافظت على شخصيتهم ورصانة موقفهم وتوازن حركتهم .

لقد نتجت من خلال الاختلاط الحضارى فى تاريخنا اتجاهات فكرية شتى متنوعة ومتضادة أدت إلى صراع داخلى شديد ، ولكن الجميع مع ذلك كانوا يحاولون استمداد العون من أصول الإسلام وقواعده العامة من خلال المصدرين الأساسيين ؛ الكتاب والسنة .

وكان كل فريق حريصاً على أن يصوغ مواقفه وآراءه فى ضوء تلك الأصول والقواعد الإسلامية . ولم يكن فى ذلك شك أو نقاش .

فالمذاهب الفقهية على تنوعها وصراعاتها التى أغنت موضوعات الفكر الفقهى الإسلامى ، كانت تقوم أساساً على الأدلة القطعية أو الظنية الراجحة من الكتاب والسنة .

ولم يعرض أحد رأيا يتقصد ابتداء اتباع هواه وتجاوز كتاب ربه وسنة نبيه .

وكذلك المذاهب الكلامية ، فقد كانت من حيث المبدأ محاولات حادة لبناء النقل على أساس العقل والنظر ، ورفع التعارض الظاهرى بينهما أحيانا . وهو الذى كان يثيره الأعداء لغرض العداوة والكيد .

وكذا المذاهب الفلسفية والصوفية ، كانت تلتمس مشروعيتها ووجودها من أصول الإسلام الثابتة .

ولم يكن العلم والأدب والفن بمعزل عن مذهبية الإسلام فى الوجود ، فقد كان الغرض الأساسى منه ، الاشتراك الموجه لبناء حضارة إنسانية ذات أبعاد متوازنة .

حتى الفلسفات المنحرفة والآراء الباطنية الملحدة والتيارات الصوفية الاتحادية الحلولية الإشراقية الضالة ، لم تكن تستطيع

الظهور والتقدم فى مظاهر الحياة المختلفة دون الاعتماد على تأويل الآيات والأحاديث ، كى تسند مواقفها وآراءها واتجاهاتها .

هذه حقيقة إسلامية حضارية غدت من المسلمات التاريخية المبنية على استقراء شامل لتاريخ ثلاثة عشر قرناً من حياة المسلمين .

الإسلام كان هو الموجه والمنطلق لعقائد المسلمين ومناهجهم وأفكارهم ، وكان هو المذهبية الشاملة لحياة المسلمين . سواء أكانت مستعملة فى حدود ضوابطها الصحيحة أم حرفت إلى متاهات التأويل فالأخطاء والحيرة والانحراف والضلالة .

ثم وقعت الكارثة الكبرى فى القرن الأخير عندما حدث الانفصام الكبير بين المثقفين المسلمين المحدثين وبين إسلامهم ، وعندما انفصل العلم والأدب والفنون عن منطلقات المذهبية الإسلامية فى الكون والحياة والمجتمع والإنسان .

لم يعد الإسلام فى العصر الحديث هو الموجه الأساسى ولم تعد قاعدته الحضارية هى القاعدة التى ينطلق منها المسلمون لمواجهة الحياة الحضارية الجديدة التى نتجت عن احتكاكهم بالعالم الغربى وحضارته الحديثة .

ياترى ما الذى وقع ؟ وكيف حدث الانفصام ؟ وهل كان ذلك مصادفة وبلا مقدمات ؟ وما هى الأسباب الكامنة التى غيرت

من حياة المسلمين ودفعتهم إلى تجاهل الإسلام وجهله والخروج عليه ونسيانه ؟

ذلك لأنه من المعلوم أن هذا الكون بما فيه ومن فيه خلقه الله تعالى بنظام وسببية وغائية . كل ظاهرة فيه تخضع إلى مجموعة من السنن الإلهية التى تتحكم فى وجوده وصيرورته ، لاتفلت منها ظاهرة ، ولاتخرج عليها ذرة . كل شىء فى الوجود يمشى موزونا مضبوطا مسببا .

والظواهر الاجتماعية هى جزء من الظواهر الكونية تخضع فى ظهورها وتغيرها وتلاشيها إلى أسباب وسنن اجتماعية معروفة تدخل ضمن السنن الإلهية الكونية وتتسلسل منها . وظاهرة التغير فى حياة المسلمين كانت ظاهرة ضخمة وصيرورة تاريخية كبيرة لابد أن أسبابا مهمة ومتنوعة تقف وراءها ، وبقدر تعمقنا فى دراستها وتحديد أوجه تأثيرها نضع أيدينا على جذور الأزمة الثقافية والحضارية فى المجتمع الإسلامى الحديث .

الفصل الأول
العوامل الداخلية

الخمود والجمود :

ذكرنا فيما مضى أن المذهبية الإسلامية كانت توجه الحياة والحضارة فى العالم الإسلامى ، وكانت حركة الفكر الإسلامى فى

تنوعها منظمة ونشيطة وملتصقة بمتطلبات التطور والتغير ومواجهة أقدار الحياة ،وكانت قوية فى مواجهتها قانون التحدى والاستجابة على الرغم من عوامل النخر الداخلى ، التى بدأت تتسلسل إلى خلاياها منذ القرن الأول الهجرى ، غير أنها بدأت تبتعد شيئا فشيئا عن مذهبية الإسلام الكونية والحضارية واستسلمت إلى مرحلة الخمود والجمود فاستنفدت أغراضها وبدأت تبتعد عن الطبيعة والمجتمع وأحداثه العظام ابتعادا كبيراً ، مما أحدث فجوة فكرية كبيرة لاسيما فى القرن الذى سبق سقوط بغداد والقرون التى تلته .

ولابد لنا أن نصل هنا إلى مواطن ذلك الجمود والخمود الفكرى الحضارى من خلال دراسة موجزة لوضع التيارات والمذاهب الفكرية الإسلامية وتطورها وأثرها السلبى أو التدميرى على استمرارية الحضارة وخلق عوامل الثبات والسكون وإيقاف الزمن .

علم الكلام :

وضع الإسلام خطا واضحا بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، فنى عالم الغيب قدم للإنسان المسلم الكليات الأساسية ودعاه إلى اليقين الكامل بها من خلال براهينها القاطعة ، وحذره من التمادى فى الانجراف العقلى وراء تفصيلاتها التى لاينبنى عليها عمل ، ولاترتبط بها حركته الحضارية فى الأرض .

كان الصحابة الكرام وتابعوهم منسجمين عقيديا ، موحدين فكريا ، لأنهم آمنوا بالله تعالى وأسمائه الحسنى وآمنوا برسوله وآمنوا بالحياة الآخرة ؛ جنتها وجحيمها ، دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة السعى وراء الهواجس والظنون والخيالات . فصبوا بعد ذلك طاقاتهم المعنوية والمادية كلها لإعادة صياغة الإنسان ، وبناء مجتمعه الواقعى الربانى ،وإنشاء الحضارة الإسلامية وإلحاق الهزيمة بالطواغيت والظالمين ورفع منار الحق والقوة والحرية فى هذا العالم، كانوا يتعاملون مع دنياهم من خلال منهجية الإسلام فى الفهم والتخطيط والتوجيه،ولذلك فتح الله على أيديهم البلاد وقلوب العباد ونقلوهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها كما قال المسلم الصادق ربعى بن عامر رضى الله عنه أمام طاغية الفرس قبيل معركة القادسية الفاصلة .

لقد تفرغ الجيل الأول الصافى العقيدة المنسجم الفكر إلى نشر الإسلام ومواكبة تغيير الحياة وتربية الإنسان وتخطيط المدن وشق الأنهار وزرع الأشجار وبناء المعامل وتوسيع العمران ، فكان فكره واقعيا يتفاعل مع الأرض ويتسابق مع الزمن .

غير أن الرياح الهوج قد عصفت بهدوء البحر الإسلامى الهادئ فجرت بما لا تشتهيه السفينة الإسلامية ، عندما واجهت المجتمع

الإسلامى بعد فتوحات الإسلام الكبرى حضارات وثنية وأديان محرفة وفلسفات جاحدة ، لها أسلحتها ودفاعاتها فى الفكر ومنطقها فى النقاش ، فشنت هجوما فكريا مركزا شاملا على أصول العقائد الإسلامية ، ووضعت أمام المسلمين أسئلة ضخمة فى عالم العقيدة والشريعة تبغى زعزعة العقائد والتشكيك فى أحكام الشريعة والوقوف أمام نور الإسلام وجهاد المسلمين لإنشاء الحياة الكريمة فى الأرض .

كان خوف أمراء المسلمين وعلمائهم ومفكريهم عظيما ، كادوا أن يفقدوا توازنهم ، بل فقدوه بعد حين غيرة على الإسلام وتفكيراً فى مصير عقائد المسلمين .

تساءل هؤلاء : ماذا نفعل ؟ وكيف ندافع ؟ وما الخطط التى تجعلنا نرد كيد الأعداء ؟ فجاءهم الجواب من عقلائهم ، أنه لابد أن ندرس ما يدرس الأعداء كى نتسلح بمنطقهم وحججهم ونطلع على تفاصيل شغبهم . فاستقر رأى الخلفاء وجمع من العلماء على ترجمة كتبهم وتفاصيل مقالاتهم وفلسفاتهم ، فأنشأوا دور الترجمة وشجعوا المترجمين .

لقد كانت الحاجة ماسة يومئذ إلى عقلية واعية ومنطق جديد يفهم القرآن الكريم والسنة النبوية ويغوص فى معانيهما ويستخلص منها النظر العقلى لمواجهة الخطر الداهم وإنقاذ المسلمين من البلبلة

الفكرية والشكوك المطروحة والشبهات الكثيرة ، لاسيما أنها بدأت تجد أعوانا وعقولا ومسارب فى حياة المسلمين .

وعلى الرغم من أن المواجهة قد أدت دورها وحطمت آراء وفلسفات تلك الأديان والنحل والفلسفات، واستطاعت أن تنقذ العقائد الإسلامية من الانحرافات، إلا إنها لم تستطع أن تتفادى ردود الفعل القوية فى حومة الصراع الفكرى العنيف ، فوقعت فى أخطاء منهجية وموضوعية وأسلوبية تحولت إلى ترف فكرى ومراء ذاتى ، تداخلت العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية على تأجيج ناره ، بحيث غدا عامل اضطراب فكرى وتمزق اجتماعى ، زعزع أمن المجتمع الإسلامى . وشتت أبناءه حيث فقدوا صفاء العقيدة وانسجام الفكر والرؤية الإسلامية الواضحة فى الوجود كله ، وكان من أسباب سقوط الحضارة الإسلامية وكيانها السياسى أمام الأعداء والحضارات المهاجمة .

ولم يستطع علم الكلام فى القرون الأخيرة أن يؤدى دوره الحاسم فى الصراع الفكرى مع الفلسفات المادية فى الغرب من جهة وأما من جهة أخرى فقد حول التوحيد القرآنى الفطرى إلى عمليات وقضايا منطقية مركبة وألغاز عقلية غاية فى التعقيد قطع صلته بأوضاع التغيير الحضارى وإمداد الإنسان المسلم بقاعدة فكرية واقعية يعيشها ويرى من خلالها آماله واحلامه ويدرك فى ضوئها حياته المتطورة ويحفظ عليه توازنه وسط تيارات إنسانية مادية

واقعية تهتم أول ما تهتم بكفاح الإنسان ومشاكله المتولدة من ملامح العصر الصناعى الجديد الذى يعتمد الواقعية والتنظيم وحسابات الأرقام وتسخير قوانين المادة .

لم يدرك علماء الإسلام فى القرون الأخيرة طبيعة الظروف التى ظهر فيها علم الكلام القديم وظلوا ينظرون إلى موضوعاته ومصطلحاته نظرة تقديسية ، وكأنها هى الممثلة الوحيدة للعقيدة الإسلامية فى صورتها المثلى الثابتة ، فلم يدخلوا عليه التغيير شكلا ومضمونا حتى يرفد الحياة الحديثة بقاعدة فكرية رصينة تشترك فى أستنباط المذهبية الإسلامية الشاملة من واقع القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .

لاشك أن هذا الوضع لم يستمر بكليته ابتداء من القرن الرابع عشر الهجرى ، غير أن بدء الشعور بالتغيير ومواكبة الحياة جاء متأخراً بعد أن أوقف الجمود والتأخر الزمنى مئات من السنين .

التصوف :

ظهر التصوف رد فعل على مظاهر الترف فى الحياة الاجتماعية والانغماس فى الملذات وإرخاء اللجام أمام فرس النفس الأمارة بالسوء والاستعباد لشهواتها فدعاه إلى الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله ، والوقوف عند حد الاعتدال وتطهير النفس بالعبادة وإلزامها سلوك طريق الله سبحانه وتعالى .

إذن فالتصوف من حيث هو ظاهرة سلوكية وعبادية أصيل في الإسلام وغاية من غايات المبادئ الإسلامية التي أرادت أن تصوغ الإنسان صياغة ربانية متوازنة .

ولم يكن الصوفية الأوائل رهبانا ، وإنما اندمجوا بالحياة اندماجا قويا ، أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وقاوموا الفساد ودعوا إلى الجهاد ووقفوا أمام المظالم الاجتماعية بأنواعها ، وكانوا في المجتمع الإسلامي مصابيح الهداية ، وموائل الأمل ومواضيع الرجاء ، لاسيما في فترات التملق والرياء .

وكانت صرخات الزهاد الأوائل ثورات إسلامية عارمة على الانحراف والزيغ والاستبداد والطغيان ، وكانوا في ذلك يمثلون قوة الإسلام وعزة المؤمن الذي لايخشى في الله لومة لائم .

غير أن التصوف لم يستمر على هذه الحال ، إذ دخلته الفلسفات الحلولية والاتحادية والإشراقية الغنوصية ، فجرفته عن بساطته الأولى إلى التعقيد والانحراف والمصطلحات الغامضة والانسحاب من الواقع إلى المثال والهزيمة أمام المغريات إلى أعماق النفس .

كل ذلك وقع بعد أن ترك معظم الصوفية دراسة كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ في إطار ضوابطها الصحيحة وعلوم

الأصول والفروع واستبدلوا بها الفلسفات الباطلة وألغازاً ومخرقات وأحاجى الأمم البائدة (١) .

هنا ضيعوا التوازن فى الحياة ، وفقدوا الحركة واستسلموا إلى الحياة السلبية ودعوا الناس إلى حالة سموها السكر الإلهى ، على الرغم من دعوة الإسلام لهم إلى الصحو . ومن هذا المنطلق أفسدوا الوضع الإنسانى الصحيح فى كونه خليفة الله تعالى فى أرضه، يأخذ أوامره منه ، ويستعمل عقله ووجدانه وطاقاته فى بناء الحياة والاستفادة من قوانين الوجود وإثبات الذات ؛ يدعونه إلى الرجوع إلى الله والفناء فيه ثم الاتحادية ، إلى غير ذلك من الضلالات والإخلال ببناء الكيان الإنسانى .

ولم يقف التصوف عند مظاهره التأملية والروحية المجردة ، بل تحول إلى « طرقية » طاغوتية فى معظم الأحوال ، فى الحياة الاجتماعية، استغل فيها الدجالون والجاهلون والمنحرفون والطامعون وعبدة الدنيا طوائف كبيرة من أبناء الأمة ، فقادوهم إلى الجهالة وكرهوا إليهم العلم وفرضوا عليهم الجبر ، ثم جعلوهم كالأموات بين يدى الغاسل ، وسلبوهم العقل والذات والكرامة ، فسهل عند ذلك استغلالهم واستغنوا على حسابهم وعاشوا فى القصور ،

---

(١) لك أن تراجع كتاب « البرهان المؤيد » للولى الزاهد ، العالم العامل السيد أحمد الرفاعى فلقد عالج فيه بدايات ظهور ظاهرة الانصراف والضلالات فى أوساط كثير من الصوفية فى زمانه .

وتمتعوا هم وأهل بيتهم بخيرات الدنيا ومتع الحياة الآثمة ، ثم أضاف كثير منهم انحرافا آخر إلى انحرافاتهم السابقة ، فغدوا أداة بأيدى الظالمين والمستغلين من حكام المسلمين والمستعمرين ، يؤيدونهم فى مخالفاتهم لشريعة الله ويباركون لهم إذلال المسلمين واستغلالهم ويقاومون من يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر من العلماء الناصحين والصلحاء الزاهدين والمشايخ الصادقين .

وهكذا تحول هؤلاء مع بداية احتكاكنا بالحضارة الغربية إلى أسوأ صورة للإسلام ، يبغضونه إلى الجيل الجديد من خلال طغيانهم واستغلالهم وسلوكهم المنحرف . ذلك لأن كثيراً من أبناء الجيل الجديد لما رأوا هؤلاء فى واقعهم وجهلهم وسوء تمثيلهم للإسلام تمردوا عليه وابتعدوا عنه ورأوه بعيداً عن آمالهم وآلامهم وصراعات حياتهم وواقعهم الإنسانى السيء ، ولم ينجح من هذه الكارثة حتى أولاد هؤلاء الطواغيت الذين عبدهم أتباعهم من دون الله ، فرأينا منهم بأم أعيننا الملاحدة أو الفساق الذين كانوا يقضون الليالى الحمراء فى حانات وملاهى المدن الكبيرة ، وانضم الكثير منهم إلى الجماعات المادية والأحزاب العلمانية وعادوا الإسلام الذى استغله آباؤهم ، وبسببه عاشوا فى الحياة الدنيوية الفاجرة .

التفسير :

لم تكن الغاية من نزول القرآن الكريم الاشتغال بفك ألفاظه وإعراب كلماته والحديث عن بلاغة تشبيهاته واستعاراته ومجازاته

ومحاولة العثور على دقائق مصطلحات الكلام والفلسفة بين ثنايا آياته ، والذهاب بعيداً وراء الفجوات التى تركها فى أخبار السابقين وقصص الأنبياء والمرسلين . بل نزل الكتاب الكريم هداية للعقل الإنسانى ووضعه فى الطريق الحقيق به الذى يوصله إلى خالق الكون ومبدع الوجود ، ويستشعر من خلاله عظمة الخلق وموقعه من العبودية له سبحانه وتعالى .

نزل القرآن الكريم مهذبا للنفس الإنسانية ومربيا لها وموازنا بين متطلباتها الروحية والحيوانية ، مانعا لها من الزيغ والانحراف واتباع الهوى وعبادته .

نزل القرآن الكريم من حيث هو كل لا يتجزأ على طريق فطرته السليمة ، يقدم إليها مذهبية شاملة متكاملة عن الوجود ، تستجيب لها ، كى تستطيع أن تتحرك فى الإطار الصحيح من أجل الاستجابة لأداء الأمانة الحقة فى الاستخلاف الإلهى .

نزل القرآن الكريم لكى يضع أمام الإنسان الأصول والقواعد الاجتماعية والسلوكية لضبط حركته الحضارية فى الأرض ، مستثيراً عقله إلى مجال النظر والاستدلال والاستقراء من أجل تنظيم الحياة وبناء العمران .

نزل القرآن لكل هذا ولغير هذا من التفصيلات والتفريعات ولكن ظروف الحياة البشرية لم تدع الأمور تسرى فى مجالها الواضح .

فدخول الأمم غير العربية إلى الإسلام ومؤامرات الباطنية لإلغاء مدلولات ألفاظه ومطاعن الشعوبية فى تراكيبه واحتياج الفقهاء إلى تحليل عباراته واستنباط أحكامه ، وحرص الفلاسفة والمتكلمين على تياراتهم للاستدلال فى مسائلهم بآياته وتأويلها ، قد فرض فى ميدان التفسير الاهتمام الواسع بتفسيره فى إطار تلك المحاولات .

وهكذا وبمرور الزمن تراكمت علوم كثيرة حول آياته وظهرت الشروح والحواشي حتى تحولت كتب التفسير إلى ميادين للعلوم العقلية والنقلية . بحيث يمكن أن تستخرج عشرات المجلدات فى علوم شتى من تلك التفاسير الضخمة .

وزاد المتأخرون على كل ذلك تعقيدا شديدا فى الألفاظ وضغطا متعمدا فى العبارات ، بحيث تحولت التفاسير إلى حجب كثيفة حالت دون إدراك المسلمين لمقاصد القرآن الكريم فابتعدوا عن مواطن هدايته ، فقل بذلك تأثيره فى عقولهم وقلوبهم ونفوسهم ومجتمعهم :

ولقد واكب ذلك عامل آخر على حجب الهداية القرآنية عن النفوس هو أن المسلمين بالغوا فى التفسير التجزيئى للآيات ولم يتنبهوا إلى التفسير الموضوعى ، فحرموا أنفسهم من الحقائق الموضوعية القرآنية الموحدة فى مسائل الكون والمجتمع والحياة

والإنسان ، فلم يقدروا على استنباط نظريات متكاملة فيها من خلال تطور عصورهم فلما واجهوا الوحدات الموضوعية فى عالم الثقافة الغربية انهاروا أمامها وتزعزعوا فلم يكونوا واقفين عندئذ على أرضية صلبة ولم يستطيعوا الانطلاق الواضح من هداية القرآن الكريم لمواجهة التيارات الحديثة والمبادئ الدخيلة . وكان من الطبيعى أن ينتهى أمر المثقفين الجدد إلى تصديق تلك الوحدات من الأفكار الغربية فى غيبة المعرفة الصحيحة للإسلام الحق ومذهبيته المتوازنة فى الوجود كله .

وهنالك أمر آخر نتج عن التفسير التجزيئى ، وهو عدم اهتمام المسلمين فى القرون الأخيرة بمعالجة ظاهرة (السببية فى التاريخ) إذ عدوا التاريخ الماضى حتما وجبرا ، فلم يتعمقوا من خلال القرآن الكريم ووحدته الموضوعية فى هذا المجال وراء الأسباب والحوادث ، حتى يدركوا حركة السنن الإلهية فى الوجود فسقطوا ؛ لعدم معرفتهم بعوامل النهوض وقانون الاستجابة والتحدى فى قيام الحضارات ؛ الأمر الذى دفع المثقفين الجدد إلى الاعتقاد بأن اللجوء إلى الثقافة الأوربية الحديثة غدا أمراً حتميا لإنقاذنا مما وقعنا فيه من الجبرية وسكون العقل وتعطيل القوى والطاقات والجهل بحركة التاريخ .

ولو كانت حقائق القرآن الكريم حاضرة فى عقول المسلمين ، وسننه الكونية واضحة أمام أبصارهم استطاعوا منذ زمن بعيد أن

يدركوا الخلل ويتعمقوا فى الأسباب الكامنة وراء حركة التاريخ كما أخبرهم بها القرآن الكريم لما انهزموا أمام الحضارة الغربية كل هذه الهزيمة ، ولما تركوا دينهم وقرآنهم وكأنهم لاصلة لهم بالإسلام .

الفقه :

ترك الإسلام المساحة العظمى فى عالم الشهادة والواقع لحركة العقل الإنسانى ، تواجه متغيراته من منطلق الكليات والأصول العامة فى الشريعة الإسلامية ؛ النقلية منها والعقلية .

لقد تكونت من تلك المواجهة المتلاحقة المضبوطة حركة الفقه الإسلامى بمذاهبه ونظرياته وقواعده العامة ، فشكلت ثروة فقهية هائلة أخصبها الواقع المتنوع المتغير المستمر ، فغدا الفقه الإسلامى بأصوله ومبادئه العامة وتطبيقاته يشكل ضوابط حركة المجتمع كما كان يعبر عن واقعيته أحسن تعبير فى مجالات الحياة كلها .

ومرت الحركة الفقهية بأدوار متلاحقة من عصر النمو إلى عصر التأسيس والازدهار إلى عصر التنسيق والاستدلال إلى عصر التجميع والاحتفاظ إلى عصر الخمود والجمود تعبيراً عن فترة التوقف الحضارى والانحطاط السياسى والاجتماعى ، فحدث فراغ كبير ، وتوقف الإبداع العقلى التشريعى ، لغلبة عوامل السكون والموت وتسلط الاستبداد والجهل وانتهاء عصر التفكير

والاجتهاد . وزاد الأمر صعوبة وفسادا أن كتب الشريعة الإسلامية وموضوعاتها الضخمة باختلافاتها واستدلالاتها ونصاعة أسلوبها وسهولة تناولها للقضايا قد ضغطت ولخصت فى أساليب ركيكة جامدة ، تعبر تمام التعبير عن جمود العصور التى ظهرت فيها .

وبعد أن كان الفقيه يقدم موضوعاته الموحدة ونظرياته المتكاملة وتطبيقاتها المستقرأة التى تربط بينها أصول واحدة ، تحول إلى دراسة تجزيئية كانت تفتقر إلى الوحدة والشمولية ومعرفة القواعد والأصول العامة المرتبطة بها .

وبعد أن كان الفقه والأصول والقواعد علما واحدا متشابكا يثير العقل ويدفعه إلى الإبداع ومتابعة قضايا الحياة تحول إلى أجزاء مبعثرة تدرس وتحفظ بمعزل كل جزء عن الآخر دون حركة وحياة وواقع .

وانتهى الأمر بالفقه فى القرون الأخيرة إلى قطيعة مع الحياة ، لاسيما بعد احتكاكنا بالمجتمعات الحضارية الغربية الحديثة .

فحدث عند ذلك فراغ كبير فيه انهارت ثقافتنا التشريعية أمام القوانين الغربية الحديثة التى كانت قد اتجهت إلى الحركية الاجتماعية الواقعية والنظرة التى استنبطت النظريات المتنوعة والممارسة الحيوية المستمرة فى الحياة الإنسانية كلها .

وبما أن مجتمعاتنا بدأت تخرج من عصور السكون إلى عصر الحركة والانطلاق ، وبما أنها نتيجة لعوامل الاحتكاك والتوجيه بدأت تتأثر بالواقع الاجتماعى الغربى ، ولما لم تكن عندنا حلول تشريعية واضحة ومواجهة إسلامية جادة ، استسهلت الأجيال الحديثة الأخذ المباشر والنقل المحدد من التشريعات الغربية ففقدت مجتمعاتنا الأصالة والتخطيط والواقعية ، وظن الظانون أن كل ذلك حدث لافتقارنا إلى الحياة التشريعية ، ولم يعلموا أن أمتنا كانت تمتلك أضخم ثروة تشريعية تبلورت عبر أكثر من ثلاثة عشر قرنا ، وأنها قد عبرت من أيام نابليون إلى التشريعات الأوربية فأثرت فى اتجاهاتها وأثرتها ثراء عظيما فى الوقت الذى كانت تلك الثروة العظيمة عندنا تغط تحت أغطية القرون السميكة وتقدم فى المساجد ومجالس العلم المحدود ، أشلاء مبعثرة ، جامدة معدومة الصلة بالمتغيرات الجديدة .

العلوم :

ما من باحث منصف يدرس القرآن الكريم إلا يكتشف فيه حقيقة كونية هائلة منهجا ومعرفة .

أما المنهج فيتجلى فى وضع القرآن الكريم المبادئ الأساسية للوصول إلى حقائق الوجود ، منها التنبيه إلى السببية والغائية فيه وعدم الاستسلام إلى الظنون والانتقال من المحسوس إلى المجرد

واتباع طرق الاستقراء والاستدلال والنظر من خلال استعمال الطاقات البشرية المادية كلها (١) .

وأما المعرفة العلمية الكونية فقد وردت إشارات متنوعة عنها فى كثير من الآيات القرآنية ، تكشف أسرار الوجود وما أودع الله فيها من القوانين المادية من خلال الحديث المفصل عن مظاهر القدرة الإلهية .

وإذا أضفنا إلى ذلك موقف الرسول الكريم من العلم والتعلم والفهم السديد لصحابته وتابعيهم لإدراك المقاصد القرآنية فى الدعوة إلى فهم أسرار الوجود أدركنا حقيقة التغير الحضارى الذى نتج فى العالم الإسلامى من منطلق مواجهة المسلمين للحضارات العالمية يومئذ مواجهة نشطة مفتوحة بعقلية علمية دقيقة .

لقد كانت النتيجة الحتمية لذلك الموقف الرشيد ظهور مؤسسات الترجمة الضخمة التى قامت بعمل حضارى تاريخى كبير فى ترجمة علوم الفلك والرياضيات والطب والصيدلة .

ولم يثبت علماء الإسلام على ما ترجموه بل زادوا عليه وانطلقوا منه إلى صياغة منهج تجريبى كامل انتهى إلى قيام حضارة علمية

---

(١) راجع : الاسلام فى عصر العلم للدكتور محمد أحمد الغمراوى والاسلام والفكر العلمى للاستاذ محمد المبارك .

عملية كانت سببا فى قيام أعظم تنمية اجتماعية حضارية فى القرون الوسطى فى العالم (١) تجلت فى التقدم الزراعى والصناعى والتجارى وأدت إلى رخاء مادى كبير فى أجزاء مهمة من العالم الإسلامى ونتجت عنها كذلك المؤسسات الصحية والثقافية والمدارس والجامعات وألوف المكتبات التى حملت مشاعل الحضارة قرونا من الزمان .

يقول كوستاف لوبون « ويعزى إلى بيكون على العموم أنه أول من أقام التجربة والترصيد اللذين هما ركن المناهج العلمية الحديثة مقام الأستاذ ، ولكنه يجب أن يعترف اليوم بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم ،وقد أبدى هذا الرأى جميع العلماء الذين درسوا مؤلفات العرب ولا سيما هنبولد ، فبعد أن ذكر هذا العالم الشهير أن ما قام على التجربة والترصيد هو أرفع درجة فى العلوم قال « إن العرب ارتقوا فى علومهم إلى هذه الدرجة التى، كان يجهلها القدماء تقريباً » .

ويقول سيديو « إن من أهم ما اتصفت به مدرسة بغداد فى البداءة هو روحها العلمية الصحيحة التى كانت سائدة لأعمالها . وكان استخراج المجهول من المعلوم والتدقيق فى الحوادث تدقيقاً

---

(١) منهج التغيير الاجتماعى فى الاســـلام للمؤلف ص ٤٩ وما بعدها .

مؤديا إلى استنباط العلل من المعلولات وعدم التسليم بما لايثبت بغير التجربة مبادئ قال بها أساتذة من العرب فى القرن التاسع من الميلاد حائزين لهذا المنهاج المجدى الذى استعان به علماء القرون الحديثة بعد زمن طويل للوصول إلى أروع الاكتشافات (١) .

لم يستمر وضع العالم الإسلامى الحضارى بنفس القوة إذ بدأت عوامل الضعف والسقوط تتسلل إليه من الداخل ، فتحمل إليه الخراب وتفقده الوحدة العقيدية وتقوم فيه كيانات سياسية متهرئة هزيلة ، فتسقط مصالح الأمة صريعة بيد الأهواء والمصالح الذاتية الضيقة ، فينتهى الأمر إلى صراعات عنيفة تجلب إلى المجتمع الجهل والجوع والمرض ، فتطمع فيه قوتان عظيمتان ، الصليبية من الغرب والتتر من الشرق ، فتخربان فيه كل شىء وتسقط بغداد بيد التتر عام (٦٥٦هـ) ويبدأ بذلك عصر الركود ، فتفقد الأمة تدريجا روحها العلمية واتجاهها العقلانى ، وفهمها الصحيح لأصول الإسلام ، ثم تنام حضاريا لتجد نفسها بعد قرون أمام الحضارة الغربية الحديثة بقضاياها الإنسانية وروحها العلمية ومخترعاتها الصناعية وتنظيماتها العمرانية ، فيقع جمع كبير من متعلمى الأمة فى الفخ فيظنون أنهم أمام عالم جديد ومنهج جديد وثقافة جديدة ، تتجلى فيها القوة والانجازات الهائلة فيقعون

---

(١) حضارة العرب ص ٤٢٥ ، ٤٣٦ .

مصروعين مبهورين يشعرون بعقدة نقص عظيم ويعبرون عن هزيمتهم الداخلية باندفاع شديد نحو الحضارة الغازية ، فيستسلمون إليه فى خشوع دون وقفة تأمل أو مراجعة حساب ، فيدخلون فى عصر الأزمة الثقافية التى نريد فى هذا الكتاب أن نكتشف أسبابها وجذورها الماضية والحاضرة .

الفصل الثانى

واقع المسلمين

بعد أن تحدثنا بإيجاز عن الواقع الفكرى والحضارى فى العالم الإسلامى فى القرون الأخيرة ، والذى كان من أهم أسباب أزمتنا الثقافية ، لابد لنا أن نتحدث عن جوانب أخرى من واقع المسلمين التاريخى ، والتى تشكل حلقات متصلة متعانقة فى أحداث تلك الأزمة نحصرها فى المظاهر الثلاثة الآتية :

واقع الحكام :

الإسلام من واقع الوحى الإلهى الثابت بالقرآن والسنة لم يميز الحكام عن المسلمين ولم يعطهم حقوقاً فوق حقوقهم البشرية ولم يعترف لهم بنظرية التفويض الإلهى والحق المطلق فى الحكم ، ولم يجعلهم كذلك مصونين غير مسؤولين ، بل نظر إليهم من حيث هم أفراد من المسلمين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم : مسؤولون

مكلفون ، يلون الحكم ببيعة صحيحة من المسلمين ، لا إكراه فيها ولاتزييف . ينوبون عن الأمة فى تنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية والمحافظة على عزة الإسلام والمسلمين ويحفظون لهم حقوقهم فى أنفسهم ومالهم وكرامتهم .

ولقد تجلت هذه المعانى السامية فى أجلى صورها فى الخلفاء الراشدين الخمسة الأوائل وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وعمر بن عبدالعزيز ، وكثير من الأمراء العادلين عبر تاريخ الإسلام ، غير أن السمة العامة للحكم فى المجتمع الإسلامى بعد صفين ، كانت القهر والتفرد بالحكم ومجانبة الشورى والبيعة الصحيحة ، والتجاوز على حقوق المسلمين وامتهان كراماتهم وتسخيرهم ومسخ آدميتهم بدرجات متفاوتة .

إذن لقد خرج حكم الخلافة النبوية العادلة إلى ملك ودنيا وفخفخة ومظاهر ، رسمت حول الحاكم هالة من التعظيم والعبودية فدفعتهم إلى الطغيان واستعانوا فى ذلك ببطانة السوء والمنافقين والدجالين من أصحاب المصالح المتنوعة ، فانقسم المجتمع الإسلامى إلى فئتين ؛ فئة الظالمين الطاغين تجمع إلى الحكام كبار المستفيدين من الأمراء والوزراء والقواد والتجار ، وفئة أخرى تجمع المستضعفين المظلومين وهم الأكثرية الساحقة المسخرة .

ولقد أدى هذا الوضع لاسيما فى العصور الأخيرة إلى زعزعة المجتمعات الإسلامية وأسلمها إلى التخلف الحضارى العام وحال

بينها وبين استعادة قوتها الذاتية ، فسقطت البلاد الإسلامية تحت أقدام الكفار المستعمرين . وكان ذلك عاملا مهما من عوامل إحداث الأزمة الثقافية تجاه الإسلام . ذلك لأن المثقفين المحدثين عندما احتكوا بالحضارة الغربية وتثقفوا بثقافتها وخالطوا مجتمعاتها وجدوها مجتمعات « ديمقراطية » . الناس لهم فيها حقوقهم وتحفظ لهم كرامتهم وآدميتهم والحاكم فرد منهم يختار من قبلهم . ثم وجدوا فيه عوامل النهوض والتقدم المادى ومظاهر العدل فظنوا أن حالة الانحطاط العام التى تمر بها أمتهم نتجت عن الإسلام ولم يقفوا وقفة تاريخية صحيحة ، واستسهلوا الاستسلام والتقليد وغفلوا عن المراجعة والتقويم فنظروا من دون انتظار إلى دينهم وحضارتهم من خلال تطور الدين والحضارة وصراعاتهما فى الحياة الأوربية فانتهوا إلى الأزمة الخطيرة التى يعانى منها المجتمع الإسلامى اليوم .

واقع العلماء :

العلماء هم ورثة النبى ﷺ فى منهج الإسلام . يرثون منه الكتاب والسنة ، ويتعمقون فى دراستهما ويتمسكون بهما ويدعون إلى الله على بصيرة ، ملتزمين بسلوك صحابة رسول الله ﷺ فى التمسك بالحق وعدم الخشية إلا من الله سبحانه وتعالى والزهد فى الدنيا ، والرغبة الدائمة فى الحياة المستقيمة .

ولقد كان السلف الصالح من علماء الصحابة والتابعين وتابعيهم كالمصابيح المتلألئة فى الليالى المدلهمة ، حافظوا على الميثاق ولم

يقولوا على الله إلا الحق ، ووقفوا أمام الظلم والطغيان ، وقدموا خياتهم – كلما اقتضى الأمر – حفاظا على حدود الله تعالى ، وقادوا الأمة إلى الخير وهيأوا صفوفها إلى جهاد أعداء الله والدفاع عن أرض الإسلام .

لم يتسموا برجال الدين ، ولاشكلوا مؤسسة طاغوتية مستغلة ، وكان البارزون الصادقون منهم يمتنعون عن مخالطة الظالمين ولايركنون إليهم فى شيء ، بل عند اللقاء يعظونهم ويسمعونهم كلمة الحق ويدلونهم على مواضع الانحراف والفساد .

غير أنه بجانب الصادقين المؤمنين ظهر الأدعياء الكاذبون من طلاب الدنيا وعبادها ، فالتفوا حول الظالمين واسترخصوا أنفسهم بالوقوف على الأبواب . لاسيما فى العصور الأخيرة ، فخانوا أمانة الإسلام وسوغوا أعمال الحكام وقراراتهم وتجاوزاتهم على الله ورسوله من خلال فتاوى باطلة ومقالات زائفة ومدائح مفعمة بكلمات الدجل والنفاق ، فبعد أن كان العلماء قادة الأمة فى الملمات وأصوات الحق عند المظالم ونذر الخير والعدل عند الشدائد تحول المنحرفون إلى أبواق وطبول ، فهانوا على الناس ففقدوا الثقة بهم وعدوهم من عوامل النخر الاجتماعى . أخص منهم المثقفين المحدثين الذين جهلوا مواقف العلم والعلماء فى الإسلام ، فظنوا أن هؤلاء الممسوخين هم فرسان الحلبة وأنهم يمثلون تاريخ

الإسلام كله ، فحكموا عليهم جميعاً ؛ الصالحين منهم والطالحين حكما واحدا وعدوهم أداة بيد المستغلين دون تدقيق أو تحقيق فأنزلوهم منزلة كهنة الكنيسة فى الغرب عندما تحالفوا مع الملوك والنبلاء ضد مصالح المحرومين والمستضعفين .

وهكذا غدا علماء السوء هؤلاء بانحرافهم وسوء سلوكهم سبة على الإسلام، وكانوا من أسباب أزمة المثقفين ضد الإسلام البرىء من بعض منتسبيه الخائنين .

واقع العامة :

إن الخمود والجمود الذى أصاب الثقافة الإسلامية فى الصميم فحرفها عن أن تكون وسيلة فعالة لمعرفة إسلامية شعبية عامة ولصياغة متوازنة لشخصية الإنسان المسلم فى عقله وقلبه ونفسه ، أفقد المجتمع الإسلامى عموما فاعليته الحركية . بحيث غدا الإنسان المسلم فيه غير شاعر بانسانيته وحقوقها . يتجرع الآلام ويستسيغ المظالم ويستسلم بسهولة إلى الخرافة والسلبية ، ويعد كل ذلك قدراً مقدوراً عليه من خلال نظرة تواكلية بعيدة عن حقائق المذهبية الإسلامية التى نجد أدلتها القاطعة فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وحياة صحابة رسول الله ﷺ وتابعيهم فى كل عصر تال بإحسان .

لقد تحول الإنسان المسلم إلى كائن متخلف حقا ، لم يستطع فى العصور الأخيرة أن يعى عقيدته وواقعه وما حصل من التغير فى هذه الدنيا العريضة .

إن الظروف التاريخية الشائكة من جهل بسنن الله فى الوجود وغزو خارجى شرقا وغربا تعرضت له أمة الإسلام واستمرار الحكام فى عزلتهم عن المطالب الأساسية للأمة ، وتمكنهم من إذلال رقاب أبنائها وتكالب معظم العلماء على المغانم والمناصب وتملق الظالمين وعدم قيامهم بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والدفاع عن المظلومين والمستعبدين وتنوير عقولهم وإيقاظ إنسانيتهم قادت الأمة الإسلامية إلى هذا المصير المفجع من الجهل والأمية والفقر والأمراض الاجتماعية المتنوعة التى زعزعت وحدة الأمة وأبعدتها عن روح المسؤولية الجماعية وحالت بينها وبين إدراك ما يريده منها إسلامها من عزة ووحدة ويقظة وأخلاق .

لقد نتج عن هذا الوضع انهيار كامل دفع الأمة إلى أحضان المستعمرين الذين احتلوا بلادها وفرضوا عليها حياة الذلة والاستسلام وأبعدوها أكثر ، من مواطن معرفة متطلبات العقيدة والنهوض والمقاومة . فلما غابت العقيدة الحقة واشتد الاستبداد وعم الظلم والخراب وتمكن الجوع والمرض ، وتبعثرت الأشلاء وتلاشت الشخصية الحضارية المستقلة ، حدث الانفجار الذى لم تكن

تقوده مذهبية إسلامية واضحة ووحدة قوية شاملة وأخوة جامعة مانعة، إلا بقدر ما يتصل الأمر بمفهوم إسلامي عام لطرد المستعمرين مشوب بدوافع القومية والوطنية.

فلما انتهى الاحتلال بدأ المثقفون الذين تربوا فى ظل مناهجه الثقافية يتساءلون عن التغيير والبناء واللحاق بالأمم المتحضرة، ولم تكن أمامهم إلا المناهج التى تعلموها فى مؤسسات الحضارة الغربية المادية، فظنوا أنها تكفى لإخراج الأمة من أزمتها التاريخية الحضارية فحاولوا بكل ما أوتوا من فطنة وذكاء إخراج الأمة لاسيما عامتها من أوضاعها المتردية وإنسانيتها المستلبة، فتجاهلوا فى هذه السبيل عقيدة الأمة وأصالتها وخصائصها وحضارتها، بل زادوا الطين بلة، فعدوها من ضمن عوامل الانهيار والتأخر، فظهر بذلك ما نسميه بأزمة المثقفين فى عصرنا الحاضر تجاه الإسلام.

الفصل الثالث

العوامل الخارجية

الاستشراق

لقد أثبتت الدراسات الحديثة أن الغرب النصرانى بعد إخفاقه فى حروبه الصليبية على العالم الإسلامى لم يستسلم إلى الواقع، ولم يردعه مالقيه أمام المسلمين من هزائم عسكرية متتالية خلال عدة قرون، فلجأ إلى تخطيط جديد، يستطيع من خلاله أن يقوم بعمل

تاريخى هائل هو : منع الإسلام بعقائده وشرائعه وثقافته من الوصول إلى العالم النصرانى ، بصنع سد ثقافى منيع يصعب على الإسلام اختراقه من خلال شن هجوم مخطط عام عليه وعلى بنيه وحضارته وتصويره بأنه دين وثنى ، وتزييف عقائده وشرائعه وتصويرها للأوربيين بأبشع ما يمكن من تصوير ، والصاق التهم والأكاذيب بالأمة الإسلامية كلها ، واستعمال كل ما يمكن أن يوجد فى قاموس البذاءة الأوربية ضدها ، والحديث عنها وكأنها أمة كافرة وحشية ومتحللة وعدوة للحق والفضيلة فى هذه الدنيا. ولم تبق الكنيسة والمؤسسات الثقافية المتفرعة منها على وسيلة من الوسائل المادية والمعنوية إلا اتبعتها لتحقيق هذا الهدف ، حتى استطاعت أن تدخل كراهية الإسلام والمسلمين فى دماء الشعوب الأوربية تنتقل كابرا عن كابر ، ويتأجج أواره مع الأيام. واقتنع الأوربيون مع تلك التربية الطويلة أنهم لابد أن يخضعوا الشرق الإسلامى لسيطرتهم ولابد أن يهدموا فيه كل مقوماته.

ولقد نمت هذه الحرب الثقافية الضروس عبر عشرات الألوف من الدراسات والأبحاث التى قدمتها مؤسسة الاستشراق الغربى التى أرادت أن تصور إسلاما معينا من وجهة نظرها ثم ترفضه رفضا قاطعا.

لقد حدد الاستشراق أهدافه قديماً وحديثا ، وكان بحق مقدمة الغزو الاستعمارى بكل أشكاله لبلاد الإسلام ، بل كان يشكل وعاءه وقاعدته الفكرية.

ومن الكوارث التاريخية الكبرى أن هذا الاستشراق الذى كان أداة بشعة لتصوير الإسلام وتزييفه لمنع عبوره إلى الحياة الأوربية ، وكان منطلق ومخطط الغزو الفكرى فى بلاد الإسلام استطاع أن يخترق حياة المسلمين ويشوه أمام أجيالهم التى تربت فى ظل ثقافة الخمود والجمود الإسلام بكل معانيه من خلال الاحتكاك الحضارى بالمسلمين فى القرن الأخير ، لاسيما فى مرحلته الأخيرة التى أختفى فيها وراء براقع العلمية والموضوعية والحياد . فاستطاع هذه المرة أن يقوم بمنع تسرب الإسلام الحق إلى حياة الثقافة الجديدة ، سواء عن طريق الإعلام العام أم المؤسسات الثقافية فى البلاد الغربية أو المراكز والمدارس والجامعات فى البلاد الإسلامية.

ومن بين عشرات الكتب والدراسات والمقالات التى قرأتها حول الاستشراق أعتمد هنا على الدراسة النفسية التى كتبها الدكتور إدوارد سعيد حول الاستشراق بمنهج علمى حيادى وثائقى صارم.
وفيما يلى فقرات متنوعة من هذا الكتاب تؤيد كل ماذكرناه

يقول الدكتور إدوارد :

– لقد استجاب الاستشراق للثقافة التى أنتجته (الثقافة الأوربية) أكثر مما استجاب لموضوعه المزعوم (أى الشرق ومنه الإسلام) الذى كان أيضاً من نتاج الغرب (١) .

---

(١) الاستشراق : ترجمة كمال ابو ديب ط ١٩٨١/١ بيروت ص ٥٥ .

– وإذا كان جوهر الاستشراق هو التميز الذى يستحيل اجتثاثه بين الفوقية الغربية والدونية الشرقية ، فان علينا أن نكون على استعداد لنلاحظ كيف أن الاستشراق فى تناميه وفى تاريخه اللاحق قد عمق هذا التميز (١) .

– وفى الغرب المسيحى يؤرخ لبدء وجود الاستشراق الرسمى بصدور قرار مجمع فينا الكنسى عام (١٣١٢ م) بتأسيس عدد من كراسى الأستاذية فى العربية واليونانية والعبرية والسريانية فى جامعات باريس وإكسفورد وبولونيا وأفنيون وسلامانكا (٢)

– لم يصبح الإسلام رمزاً للرعب والدمار والشيطان وأفواج من البرابرة الممقوتين بصورة اعتباطية ، فبالنسبة لأوربا كان الاسلام رجة مأساوية دائمة (٣) .

– مادام المسيح هو أساس العقيدة المسيحية ، فقد افترض بطريقة خاطئة تماما أن محمدا كان للإسلام ما كان المسيح للمسيحين ومن ثم إطلاق التسمية التماحكية المحمدية على الإسلام والنعت الآلى المنتحل على محمد (٤) .

– وهكذا نجد فى القرن الثانى عشر والثالث عشر تصديقاً عاما لكون الجزيرة العربية على حواشى العالم المسيحى ملجأ طبيعيا للهراطقة العصاة وأن محمدا كان مرتدا داهية (٥) .

---

(١) ص ٧٣ . (٢) ص ٨٠ . (٣) ص ٨٩ .
(٤) ص ٩٠ . (٥) ص ٩٢ .

- إن الشرق الذى يتجلى فى الاستشراق إذن هو نظام من التمثيلات مؤطر بطقم كامل من القوى التى قادت الشرق إلى مجال المعرفة الغربية والوعى الغربى وفى مرحلة تالية الإمبراطورية الغربية (١) .

- وما أطرحه هنا هو أن الاستشراق كان جوهريا مذهبا سياسيا مورس إراديا على الشرق لأن الشرق كان أضعف من الغرب الذى ساوى بين اختلاف الشرق وبين ضعفه (٢) .

- ونادراً ما رؤى الشرقيون أو نظر إليهم ، بل لقد نظر عبرهم ، وحللوا لا كمواطنين أو حتى كبشر ، بل كمشكلات تتطلب الحل أو الحصر ضمن حدود ، أو الاحتلال حين بدأت القوى الاستعمارية تتشهى أراضيهم بشكل علنى (٣) .

- والمستشرق إلى حد بعيد يزود مجتمعه بتمثيلات للشرق :

(١) تحمل طابعه المميز الخاص .

(٢) توضح تصوره لما يمكن للشرق أو ينبغى له أن يكون .

(٣) تتحدى تحديا واعيا وجهة نظر إنسان آخر إلى الشرق .

(٤) تزود الإنشاء الاستشراقى بما يبدو فى تلك اللحظة بأمس الحاجة إليه .

---

(١) ص ٢١٤ . (٢) ص ٢١٥ . (٣) ص ٢١٨ .

(٥) وتستجيب لمتطلبات ثقافية ومهنية وقومية وسياسية واقتصادية تفرضها الحقبة التاريخية (١).

– يبدو أن الاستشراق رغم اخفاقاته ومصطلحه المعاظل الذى يثير الشفقة وعرقيته الى لاتكاد تحجب، وجهازه الفكرى الرقيق رقة الورق يزدهر اليوم بالأشكال التى حاولت أن أصفها، وبالفعل فان ثمة ما يدعو إلى القلق فى كون تأثيره قد انتشر إلى الشرق نفسه، فصفحات الكتب والمجلات باللغة العربية تمتلىء بتحليلات من الدرجة الثانية لعقل العربى والإسلام وأساطير أخرى يقوم بها كتاب عرب (٢).

– والنتيجة المتوقعة لهذا كله هى أن الطلاب الشرقيين والأساتذة الشرقيين ما يزالون يريدون الحضور إلى الولايات المتحدة والجلوس عند أقدام المستشرقين الأمريكيين ثم العودة فيما بعد لتكرار الشعيرات اللغوية الى ما فتئت أصفها بأنها مذهبيات جامدة استشراقية على مسامع جمهورهم المحلى (٣).

نتائج الاستشراق :

– ترجمة القرآن ترجمات مشوهة إلى اللغات الأوربية مع تحريف مقصود فى كثير من الأحيان لعقائده وشرائعه وأخلاقياته الأمر الذى شوه الإسلام أمام الغربيين تشويها مكثفا وقوى

---

(١) ص ٢٧٥ . (٢) ص ٣١٩ . (٣) ص ٣٢٠ .

التربية الكنسية التي تعرض لها الغربيون ، وركزها في الأجيال المتلاحقة .

– دراسة الإسلام من خلال الأحقاد الصليبية الخالية من الإنصاف العلمي والحياد الموضوعي في إطار من التظاهر بمنطلقات البحث العلمي الحديث ، وتزييف الحقائق التي وردت حوله بشكل مقصود .

– الحكم على الإسلام من خلال المناهج المادية الغربية التي كانت تعبرا عن التغيير الحضاري داخل نمطية الحياة الغربية ، والتي دت إلى عد الإسلام حلقة في سلسلة الثقافة الإنسانية من خلال الآراء المتنوعة التي نتجت عن الدراسات النفسية والاجتماعية والاقتصادية والفلسفية في الغرب .

– الاهتمام البالغ بمظاهر الانحرافات الدينية والثقافية التي ظهرت عبر التاريخ الإسلامي والتي أدت في الماضي إلى تمزيق المسلمين فكرا وواقعاً ، وطعنت في وحدتهم العقيدية وانسجامهم الفكري . أي أن المستشرقين في إطار مخططات السياسة الاستعمارية الغربية أرادوا نقل الصراع الفكري الدموي الميت من الماضي إلى الحاضر لإشغال المسلمين عن واقعهم والحيلولة دون الاجتماع على مبادئ الإسلام الفطرية القائمة على الوحي الإلهي .

– شن غزو فكري عام على الإسلام عقيدة وشريعة وحضارة واتهامه بالقصور عن مسايرة الحياة الجديثة ومحاولة تغييره بماينسجم

مع الحياة الغربية الحديثة . يعبر المستشرق ك . كراج رئيس تحرير مجلة العالم الإسلامى عن ذلك فيقول « إن على الإسلام إما أن يعتمد تغييرا جذريا فيه أو يتخلى عن مسايرة الحياة الحديثة»(١)

– التخطيط لإيجاد أديان جديدة فى بلاد الإسلام فى ظل الحكومات المستعمرة تقوم على أساس نسخ المبادئ الأساسية فى الشريعة الإسلامية التى كانت تشكل عقبة أساسية أمام مطامع المستعمرين والتى تجلت فى ظهور البهائية فى إيران (٢) والقاديانية فى الهند (٣) .

وهكذا كان للاستشراق أثر كبير جداً على خلق أزمة المثقفين المحدثين فى العالم الإسلامى من خلال تطبيق مناهجه فى مدارس وجامعات العالم الإسلامى ومؤسساته الثقافية والإعلامية ، ومن خلال تلمذة عشرات الألوف من الطلبة مباشرة على المستشرقين فى الجامعات الغربية ، وكذلك من خلال الاحتكاك الثقافى العام بين المجتمعات الإسلامية والمجتمعات الغربية .

---

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ص ٩٧ للدكتور محمود حمدى زقزوق – كتاب الأمة (٥) الدوحة – قطر .

(٢) راجع فى دراسة البهائية (حقيقة البابية والبهائية) للمؤلف .

(٣) في دراسة القاديانية راجع (القادياني والقاديانية) للندوي و (القاديانية) للمودودى و (القاديانية) لاحسان الهى ظهير و (القاديانية والاستعمار الانجليزى) للدكتور عبد الله سلوم السامرائى .

مؤسسات الثقافة الاستعمارية :

عندما احتل المستعمرون بلاد الإسلام ، كان الاستشراق الأوربى كما ذكرنا قد قطع شوطا بعيداً فى تزييف الحقائق الإسلامية ومسخ حضارتها وتاريخها . وكان أمام المستعمرين مادة كتابية ضخمة للبدء بحركة ثقافية أجنبية واسعة فى بلاد الإسلام معتمدين — زيادة على المستشرقين المحترفين فى وزارات الخارجية والمستعمرات — على مئات الإرساليات التبشيرية (١) التى انتشرت فى بلاد الإسلام بحجة المساعدات ونشر التعليم ، ففتحوا فى ظل حراب الاحتلال المدارس المتنوعة لاستقبال الطلبة المسلمين منذ القرن الماضى وتعليمهم اللغات الأجنبية لتدخل من خلال الثقافات الأوربية إلى العقلية المسلمة وتحدث التغيير المطلوب للتملص من الشخصية الإسلامية والانجراف الأعمى وراء التقليد المحض لواقع الحياة الغربية المعاصرة .

لقد تحولت مدارس الإرساليات الأجنبية عبر تطور عشرات السنين إلى جامعات تبشيرية ضخمة تقوم بتنفيذ نتائج الكتابة الاستشراقية وتحويلها إلى أدمغة جديدة فى العالم الإسلامى ، تشك

---

(١) راجع على سبيل المثال : « الغارة على العالم الاسلامى » — شاتليه و « التبشير والاستعمار فى البلاد العربية » للدكتور عمر فروخ والدكتور مصطفى خالدى .

فى عقيدتها وحضارتها وتستسلم إلى الثقافة الغربية من حيث هى مسلمات حضارية لابد من قبولها بدقة وعبودية .

وبجانب ذلك فلقد فتحت الدول الاستعمارية مراكز كبيرة ومتعددة فى جامعاتها للدراسات الشرقية أوالعربية أو الإسلامية من أجل أن تغذى الاستشراق بشكل مستمر ومن أجل أن تجلب إليها ألوف المتعلمين المسلمين من العالم الإسلامى المستعمر ، لكى يزودوا بمناهج الثقافات المادية، كى يحدثوا بعد رجوعهم انقلابا فكريا هائلا فى بلادهم ويكونوا المعول عليهم فى بناء المؤسسات والجامعات الوطنية لأداء دور المراكز الغربية نفسها .

ويشهد « ولفرد كانتول سمث » على ذلك بقوله :

(إن من أهم أسباب حركة الحرية والإباحية التى تسود اليوم فى العالم الإسلامى ومن أكبر عواملها نفوذ الغرب . فقد بلغت هذه الحركة أوجها فى أوربا من أواخر القرن التاسع إلى الحرب العالمية الأولى . وهكذا شأن نهضة أوربا وتقدمها . وقد سافر كثير من الشباب المسلم إلى الغرب واطلعوا على روح أوربا وقيمها وأعجبوا بها إلى أبعد حد ، وينطبق هذا بخاصة على الطلاب الذين درسوا فى جامعات أوربا بعدد لم يزل يزداد مع الأيام وهم الذين سببوا استيراد كثير من أفكار الغرب وقيمه إلى العالم الإسلامى . وقد حازت قصب السبق فى هذا المضمار تلك المعاهد الثقافية التى قامت

بتربية جيل بأكمله على النمط الغربى الحديث . وكان مما صدره الغرب إلى العالم الإسلامى تلك الأفكار المتعددة الجديدة التى تقع فى الأهمية بمكان ، والاتجاهات العقلية الدقيقة الفجة والميول الحديثة التى كان فى نشرها أوفر نصيب لنمط التعليم الغربى ، ويفوقها فى ذلك تأثير معاهد الغرب الحقوقية والسياسية والاجتماعية الجديدة ونفوذها الزائد. ومنها ما يسلط إجباراً وما يحاول تسليطه. بينما قام بعض المسلمين لمقاومة هذا التيار رحب به البعض الآخر ، إن بعضهم قد وقع تحت تأثير هذه التربية رسميا وبعضهم قد رحب بهذا التيار بدافع من أنفسهم . وأنتج ذلك أن كثيراً من المسلمين اعترفوا بهذه النظريات والمعاهد كحقيقة ثابتة وخضعوا لها بالتدريج ، وهكذا أثرت عملية التغريب بسرعة وقوة بالغتين (١).

ولقد وقعت هذه الكارثة الحضارية ، فأسست الجامعات والمؤسسات الثقافية فى طول البلاد الإسلامية وعرضها لكى تقدم من خلال مناهجها الدراسية ثمار الثقافة الغربية بمعزل كامل عن الإسلام ومذهبيته الشاملة فى الوجود فانقلبت أرض الإسلام إلى أرض ثقافة غربية خالصة .

ولم يكتف المستعمرون بذلك ، بل خططوا لشن هجوم عام شامل على الإسلام عقيدة وشريعة وحضارة فى محاولة واضحة

---

(١) نحو التربية الاسلامية الحرة ص ٣٦ لأبى الحسن الندوى ـ القاهرة ١٣٩١ هـ .

مقصودة لقطع الأمة الإسلامية عن شخصيتها الحضارية ، عبر مؤسساتها الإعلامية الجماهيرية وعبر العقليات الوطنية التى كونتها اتباعا للقاعدة التبشيرية الاستشراقية القديمة « إن الشجرة لابد أن يقطعها أحد أصحابها » .

إذن أليس قمينا بهذا الوضع الثقافى الاستعمارى المخطط أن يؤدى إلى أزمة ثقافية خانقة تجاه الإسلام يحملها خريجو مدارس الإرساليات الأجنبية والراضعون لبان المناهج المادية الغربية ؛ اليهودية والنصرانية ، من خريجى مراكز الدراسات الشرقية فى الجامعات الغربية ، ثم المتخرجين من أقسام الدراسات الإنسانية ذات الأصول والفروع الغربية ؛ الاستشراقية والتبشيرية ، ثم الذين تربوا فى ظل إعلام غربى استعمارى خالص شوه قضايا الأمة الإسلامية فى مقوماتها العقيدية وجذور حضارتها الإنسانية السامية(١)

---

(١) راجع على سبيل المثال تفصيل هذه المقررات الكتب الآتية:
(١) الغارة على العالم الاسلامى – شاتليه .
(٢) التبشير والاستعمار فى البلاد العربية للدكتور مصطفى خالدى وعمر فروخ .
(٣) الصراع الفكرى فى البلاد المستعمرة – مالك بن نبى .
(٤) الفكر الاسلامى وصلته بالاستعمار الغربى – الدكتور محمد البهى .
(٥) الاستشراق – الدكتور ادوارد سعيد .
(٦) الغزو الفكرى لبلاد الاسلام للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد .
(٧) الاستشراق والخلفية الحضارية للصراع الفكرى – الدكتور محمود حمدى زقزوق .

الاحتكاك الطبيعي بالحضارة الغربية :

لقد قدر للعالم الإسلامى المنهار حضاريا فى العصر الحديث أن يواجه العالم الغربى مواجهة غير متكافئة ، من حيث إن العالم الإسلامى انطلق من واقع الضعف الشامل والشعور بالهزائم الداخلية التى أصابته طوال القرون الأخيرة . ومن هنا فانه قد وقف من العالم الغربى وحضارته موقف المقلد الهزيل دون أن تكون له ذات مستقلة وعقلية حضارية واعية تقوم بالدراسة والمراجعة والتقويم .

أى أن العالم الإسلامى لما واجه الغرب كان قد فقد أصالته وإبداعه واختياره الحر ، بعكس موقفه التاريخى أمام الحضارات العالمية السائدة التى واجهها فى القرون الأولى من تاريخه الإسلامى .

ومن مأساة هذه المواجهة أنها تمت مع حضارة كانت قد مرت بتطورات وصراعات تاريخية رهيبة من خلال التصادم الدموى العنيف الذى حدث بين مؤسسة الكهانة الكنسية وبين متطلبات التغير المستمر فى كيان الإنسان وعلاقته بالعالم الخارجى وتحديد مصادر معرفته فى الوجود .

إذ أن الكنيسة قد حجبت الإنسان عن عقله وطاقاته ووظيفته فى العالم واستلبته وطوقته فى مجالات الحياة كلها ، وفرضت عليه مادة معرفية تاريخية خاطئة وخرافية ، وصنعت منها وحيا إلهيا مقدسا وارتكبت فى سبيل تثبيتها وإبقائها أفظع الجرائم بحق الإنسان.

زد على ذلك تحولها بذاتها إلى سلطة ظالمة رهيبة ومؤسسة إقطاعية طاغوتية .

ولم تكتف بذلك بل سوغت الإقطاع فى المجتمعات الأوربية ، وعد نظامه الاسترقاقى الظالم المهين عقوبة إلهية نتيجة لخطيئة آدم لابد من تحملها، لا بل قامت الكنيسة الإقطاعية بالقضاء على الثورات التى قام بها الفلاحون والمظلومون للمطالبة بالحد الأدنى من حقوقهم البشرية ، منها الثورة الفلاحية (الجاكرية) فى القرن الرابع عشر الميلادى (١) .

وكان من الطبيعى أن تتطور الأوضاع فى التاريخ الأوربى نحو إنكار الدين ومحاربة مؤسساته والاعتماد على العقل الإنسانى وحده وتبنى اللادينية التى ولدتها المدارس الفكرية التى ظهرت من خلال ذلك الصراع ، وهى :

الأولى :

مدرسة ذات طابع علمى عام كما تجلت فى الكتاب الموسوعين بزعامة ديدرو ، كانوا — كما يقول المؤرخ الإنجليزى ويلز — يناصبون الأديان عداوة عمياء .

---

(١) قصة الحضارة لديورانت ١٤ ــ ٤٠٦ .

الثانية :

مدرسة ذات طابع اجتماعى وسياسى ظهرت فى كتابات روسو ومونتسكيو دعت إلى عبادة المجتمع ممثلا فى الوطن أو القوم محل عبادة الله سبحانه وتعالى

الثالثة :

مدرسة ذات طابع فلسفى دعا إلى فصل الدين عن الدولة وإلغاء الدين ليحل محله الدين الطبيعى ، بدأ به الفيلسوف اليهودى « سبينوزا » واكتملت على يد المفكر الفرنسى فولتير (١) .

ولقد كانت الثورة الفرنسية التعبير الواقعى لتلك المتغيرات الجديدة المتولدة من ذلك الصراع ، أججت أوارها فى مظاهر عنيفة مستغلة الجرائم التى ارتكبها أطراف الحلف الثلاثى فى تاريخ أوربا (العرش والكنيسة والإقطاع) فشنت حملة واسعة النطاق على الدين ومؤسساته ، وتأسست لأول مرة فى تاريخ أوربا جمهورية لادينية تؤمن بالعقلانية المحضة وتكفر بالكنيسة ورجالاتها وقيمها ويدعو خطيبها إلى خنق آخر ملك بأمعاء آخر قسيس ! .

---

(١) العلمانية ـ سفر عبد الرحمن الحوالى ص ١٦٩ ـ ١٧٢ ط ١ دار مكة .

ولم تقف المسألة عند هذا الحد ، بل تمخض العقل الإنسانى الشارد المتمرد المتشنج عن إفراز المذاهب المادية والإيمان بها وحدها وتحكيمها فى شؤون المعرفة والحياة والحكم وتحويلها إلى تيارات جماهيرية فى الحياة الحضارية الحديثة .

وكان ظهور نظرية دارون فى أصل الأنواع رافدا جديدا لحركة الإلحاد ، حيث استغلت استغلالا رهيبا فى تفنيد أفكار الكنيسة على الرغم من أن النظرية لم ترق إلى مستوى الحقيقة وعارضها كثير من علماء الحياة (١) .

وكانت لنظرية التطور الداروينية آثار فى غاية الخطورة حيث أدخلت إلى موضوعات العلوم الإنسانية ، لاسيما علم الاجتماع ، وحولت الإلحاد إلى تيار عارم فى المجتمعات الأوربية .

وكانت نظرية دارون مقدمة مباشرة لظهور الفرويدية التى استخرجت من حيوانية الإنسان ، النظرية الجنسية فى تفسير السلوك الإنسانى .

---

(١) راجع أحدث دراسة علمية رياضية فى نقض نظرية دارون للأستاذ شمس الدين اق بلوت ، ترجمة اوزخان محمد على - مطبعة الزهراء - الموصل - العراق ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م وكذلك (نظرية دارون بين مؤيديها ومعارضيها) قيس القرطاس بيروت ١٣٩١ هـ .

ولم تكن أبحاث دور كايم اليهودى بأقل خطرا من نظرية فرويد حيث ذهبت إلى اعتبار الإنسان كائنا حيوانيا خاضعا للقهر الاجتماعى والتمست أدلتها من المجتمعات الحيوانية . .

وهكذا انتهى الصراع فى الحياة الأوربية فى القرون الأخيرة إلى تحطيم كل ما يمت إلى الدين والقيم والأخلاق، وغدا الوجود الإنسانى لا غاية له فى حد ذاته ، وأضحى التطور سمة التقدم حتى ولو كان اتجاهه إلى الأردأ والأسوأ .

وكانت خسارة كبيرة للبشرية أن أدخلت نتائج الصراع تلك إلى المجتمعات الإسلامية كما تدخل المعروضات التجارية دون روية ولا تفكير ، فأدى ذلك المنهج الخاطىء إلى إحداث الزعزعة الثقافية فى العالم الإسلامى، وانتهى إلى ما انتهى إليه العالم الغربى ، كأنه مر بتاريخه نفسه ، واجتاز الصراعات بعينها من الشرود والتمرد على الله سبحانه وتعالى .

الباب الثانى

مظاهر الأزمة

الفصل الأول

الجهل

إن المثقفين الذين تخرجوا فى المؤسسات الحضارية الغربية الجديدة وعاشوا فى المجتمعات الإسلامية التى تحدثنا عن ظروفها التاريخية والحضارية ، كان لابد لهم أن يجهلوا الإسلام جهلا كاملا .

لا أقصد أنهم لم يسمعوا به أو أنهم لم يحفظوا فى صغرهم شيئا من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ،أو أنهم لم يسجدوا لله يوما من الأيام أو لم يعرفوا أخبارا عن رسول الله ﷺ وصحابته الكرام رضوان الله عليهم .

لا ، لا أقصد ذلك ، لأن كل إنسان ولد وتربى فى مجتمع جغرافى إسلامى ، لابد أن يعرف شيئا من ذلك قليلا أو كثيراً .

وإنما الذى أقصده هو أنهم :

– جهلوا مذهبية الإسلام فى الكون والحياة والإنسان .

– جهلوا حقائقها التفصيلية .

– جهلوا أحكام شريعة الإسلام الحكيمة ومقاصدها النبيلة .

– جهلوا قيم الإسلام ومثله وأخلاقه .

– جهلوا خصائص حضارته وتطورها .

– جهلوا مراحلها وظروفها التاريخية ونمطها ونسقها ومصطلحاتها . وفوق ذلك فانهم لم يعرفوا من هو رسول الله ﷺ وما مقامه فى الوجود ، لم يحبوه ، لم يتمثلوه ، لم يقتدوا به ، لم يعيشوا أحداث حياته ولم يصاحبوا أصحابه ، ولم يحبوهم .

– جهلوا أسباب تقدم المسلمين فى التاريخ وأسباب تأخرهم ، لم يعرفوا شيئا عن القوى التى حاربتهم والمؤامرات التى نسجت عبر التاريخ للقضاء عليهم .

أى أن من تحولوا إلى من نسميهم « المثقفين » عندما واجهوا الغرب وحضارته وعلمه وأدبه وفنه وواقعه لم يواجهوه إلا وعقولهم خاوية ، وقلوبهم فارغة ، ونفوسهم مجردة عن معانى الأصالة والعزة والأنفة والشخصية المستقلة .

ولذلك فانهم لم يواجهوا الحضارة الحاضرة مواجهة مدركة فاحصة مراجعة مقومة .

واجهوها مواجهة سطحية من مواطن الجهل والذلة والشعور بالهزيمة ، فانبهروا بكل ما فيها دون مناقشة ودون تمييز بين الحق والباطل والصحيح والسقيم والجميل والقبيح والنافع والضار .

ولو كانوا قد واجهوها مواجهة إسلامية عالمة إذن لكان موقفهم جوانيا لاسطحيا ، ولأحسنوا التغلغل فى جذورها والتوسع فى دراسة فروعها . ولكانوا أحراراً فى الاختيار ، ثابتين فى الأصالة ، مثبتين لوجودهم الإنسانى .

ومن هنا فان مثقفينا المحدثين فى فروع الحياة كلها لا من رحم ربك منهم ، قد نقشوا ما عند الغربيين وظنوا أنه لاثقافة إلا ثقافتهم ولا أدب إلا أدبهم ولا فن إلا فنهم ولا واقع إلا واقعهم .

وهم مقابل جهلهم بالإسلام وحضارته ، عرفوا كل شىء عن واقع الحضارة الغربية .

فأهل القانون درسوا قوانين الغرب واتجاهاتها ومذاهبها ونظرياتها ، ولم يعرفوا شيئا عن الثروة الفقهية الإسلامية الضخمة أصولها ومذاهبها ونظرياتها .

وأهل السياسة والاقتصاد ، عرفوا كل شىء عن المذاهب السياسية والاقتصادية فى الغرب ، مؤسساتها وتطورها ومستقبلها ولم يعرفوا حتى النزر اليسير عن النظريات السياسية والاقتصادية الإسلامية .

وكذلك أهل الاجتماع والتاريخ وعلماء النفس ، كل أتقن فى حقل اختصاصه كل ما لقنوا هناك فى الغرب أو هنا فى بلاد الإسلام دون أن يكلفوا أنفسهم فى البحث عما ورد فى دينهم وحضارة أمتهم فى تلك الموضوعات .

وكيف يكلفون أنفسهم وهم تربوا داخل ثقافات علمانية غربية تبحث قضايا الوجود كلها بمعزل عن الدين وقيمه، وحتى ذكر اسمه ، لأن ذلك يعنى من وجهة نظرها عودة الكنيسة ومأساتها التاريخية إلى المجتمع . ويعنى ذلك عندهم القضاء على العقل والطاقات الإنسانية التى سحقتها الكنيسة أكثر من ألف عام .

هذا المنهج العلمانى الغربى العقلانى هو الذى وجه الثقافة فى العالم الإسلامى ، وهو الذى أنتج الفصام الحاد بين العلوم الإنسانية والكونية وبين الإسلام ، فغدا من العيب والخرافة والغيبية أن يحشر الدين فى تلك العلوم أو تستطلع فى الأقل مواقفه العامة والخاصة فى قضاياها . كل ذلك نقلا وتقليدا دون موازنة بين الدينين الإسلام والنصرانية وبين الحضارتين الإسلامية والغربية وتطورهما .

من خلال عشرات المواقف الأليمة جداً التى مرت بى فى حياتى التدريسية والتى أثبتت لى بشكل قطعى هذا الجهل العام بين كثير من مثقفينا للاسلام أروى الحوادث الآتية :

– فى محاضرة عامة لاقتصادى عربى مسلم ، استعرض المذاهب الاقتصادية كلها منذ أقدم العصور إلى العصر الحديث فى مختلف الملل والنحل ولم يتطرق بشىء إلى الاسلام أو حضارته فى مجال الاقتصاد منهجا وعلما . فلما سئل عقب انتهاء المحاضرة عن سبب ذلك قال بالحرف الواحد .

أنا متأسف لأننى لا أعرف عن وجهة نظر الإسلام فى هذا الموضوع شيئا ، ولما أهدى له فيما بعد كتاب حول أحكام الاحتكار فى الفقه الإسلامى تعجب كثيرا وذكر أنه لم يكن يظن أن الفقهاء بحثوا مثل هذه الموضوعات .

وحضرت مرة مناقشة رسالة علمية فى الفقه الجنائى الإسلامى مقارنا بالفقه الجنائى الغربى ، استغرب مناقش قانونى فى اللجنة أن يكون فقهاء المسلمين قد ناقشوا بعمق نظرية قانونية ، كان هو يعتقد أنها نظرية غربية صرفة .

وكنا نتناقش يوما فى غرفة الأساتذة حول وضع المرأة فى الاسلام ، فانبرى أحد المختصين فى علم الاجتماع فقال : إن الإسلام ظلم المرأة عندما جعل الرجل قواما عليها . فلما سألناه : ما المعنى اللغوى للقوامة فى الآية الكريمة ، حتى نحدد موقفنا منه ، تلعثم ولم يعرف معناها .

فقال له أحدنا ، كيف تصدر يا أستاذ هذا الحكم الظالم على الاسلام وأنت لا تعرف معنى القوامة ؟ .

وأما مثات الكتب التى صدرت فى مختلف العلوم الإنسانية التى تستدعى مقارنة موضوعاتها مع الإسلام ، فانت لاترى فيها أى أثر للإسلام أو الفكر الإسلامى ، وكأنها لم تؤلف فى دار الإسلام وكأن مؤلفيها ليسوا مسلمين !

وإذا صادف أن عرض مؤلف كتاب منها للإسلام ، فانه لايعرضه من خلال مصادر الإسلام نفسه ، وإنما يقرر الحقائق عنه من خلال تصور المستشرقين فى كتاباتهم فيترجم ما عندهم أو ينقل عنهم ويعدها مسلمات قاطعة لانقاش فيها .

ولقد عبر الدكتور زكى نجيب محمود عن هذه الحقيقة بصراحة كاملة بعد أن جاوز الستين من عمره فقال :

(لم تكن قد أتيحت لكاتب هذه الصفحات فى معظم أعوامه الماضية فرصة طويلة الأمد تمكنه من مطالعة صحائف تراثنا (١) العربى على مهل فهو واحد من ألوف المثقفين العرب الذين فتحت عيونهم على فكر أوربى قديم أو جديد ، حتى سبقت إلى خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفكر الإنسانى لا فكر سواه ، لأن عيونهم لم تفتح على غيره لتراه . ولبثت هذه الحال مع كاتب هذه الصفحات

---

(١) يستغل الكاتب كما هو واضح من محتويات كتابه (تراثنا) بمعنى كل ما هو موجود فى هذا التراث من دين وفكر وتصوف وأدب وتاريخ .. الخ .

أعواما بعد أعوام . الفكر الأوربي دراسته وهو طالب والفكر الأوربي تدريسه وهو أستاذ ، والفكر الأوربي مسلاته كلما أراد التسلية فى أوقات الفراغ . وكانت أسماء الأعلام والمذاهب لاتجيئه إلا أصداء مفككة متناثرة كالأشباح الغامضة يلمحها وهي طافية على أسطر الكاتبين .

ثم أخذته فى أعوامه الأخيرة صحوة قلقة ، فلقد فوجئ وهو فى أنضج سنيه بأن مشكلة المشكلات فى حياتنا الثقافية الراهنة ليست هي كم أخذنا من ثقافات الغرب وكم ينبغي لنا أن نزيد. إذ لو كان الأمر كذلك لهان ، فما علينا عندئذ إلا أن نضاعف من سرعة المطابع ونزيد من عدد المترجمين ، فإذا الثقافات الغربية قد رصت على رفوفنا بالألوف بعد أن كانت ترص بالمئين . لكن لا ، ليست هذه هي المشكلة ، وإنما المشكلة على الحقيقة هي كيف نوائم بين ذلك الفكر الوافد الذى بغيره يفلت منا عصرنا أو نفلت منه وبين تراثنا الذى بغيره تفلت منا عروبتنا أو نفلت منها) (١)

وهكذا نجد أن الأسباب التى تحدثنا عنها سواء أكانت المناهج الباهتة الجامدة القديمة التى كانت تسيطر على ساحة الثقافة الإسلامية قبل عصر الاستعمار ، أم سيطرة الغرب الكاملة على مصادر

---

(١) تجديد الفكر العربي ص ٥ ، ٦ المقدمة دار الشروق ط ٦ ـ ١٤٠٠ ـ ١٩٨٠ م .

ومظاهر ثقافتنا بعد عصر الاستعمار ، قد أنتجت أمة من المتعلمين والمثقفين المحدثين عزلتهم عن الإسلام الحق عزلا كاملا ، فلم يعرفوا شيئا ذا قيمة ، فامتلأت عقولهم وكتاباتهم بالانحرافات والمفاهيم الخاطئة ومظاهر الجهل المطبق التى قضت على وحدة الأمة الفكرية وحرفت مسارها الحضارى التاريخى وأخرجتها من أصالتها وشخصيتها المستقلة ووضعت أمامها حلولا منقولة جاهزة من أوضاع الأمم الغربية دون أدنى مراعاة لخصائص أمتنا العقيدية والحضارية ، فزعزعت حياتها وقادتها إلى الاضطراب والبلبلة والتمزق ، وكانت نتيجتها الحضارية ضياع قرن كامل فى حياة أمتنا دون أن تضع قدمها على الخط الصحيح فى التطور والتغير والبناء . ومن يدرى ؟ فلعله سيضيع قرن آخر قبل أن نعود إلى رشدنا .

الفصل الثانى

النظرة التراثية الى الاسلام

ينطلق هؤلاء من مقولة أن الإسلام هو تراث الأمة العربية وأنه عبر عن نزوعها إلى الوحدة وتصفية سلبيات حياتها فى الجاهلية وأنه يمثل كثيرا من خصائصها الذاتية وأخلاقياتها الاجتماعية وأنه يمثل كثيراً من خصائصها الذاتية وأخلاقياتها الاجتماعية وأنه خلفية الأمة الحضارية البعيدة .

ويظهر هذا الاتجاه الرسول الكريم ، كأنه كان بطل مرحلة حاسمة فى تاريخ الأمة العربية ، ثار على حياتها ووجد أبناءها وهيأهم لتحرير البلاد التى كانت إمبراطوريتا الفرس والروم نهبتاها واستعمرتاها وأذلتا أبناءها .

ولقد ركز هذه الفكرة فى نفوس طائفة من المثقفين المسلمين نصارى العرب ، لاسيما خريجو مدرسة الإرساليات الأجنبية وأبرزها الجامعة الأمريكية فى بيروت ، قصد الوصول إلى هدم الرسالة الإسلامية ، من حيث هى الرسالة السماوية الخاتمة وربطها بمرحلة تاريخية معينة فى حياة العرب انتهت ومضت وتحولت إلى تراث قومى للأمة العربية ، مسلمين ونصارى معا (١) .

إن هؤلاء دعوا منذ القرن التاسع عشر إلى بناء المجتمع بعد ذلك على أساس « العلمانية » التى لاتتبنى دينا من الأديان ، وكان لهؤلاء صحافة احتكروها عبر الثلاثين عاما الأولى من تأسيسها يصدرونها فى بيروت والقاهرة واسطنبول ، مما جعل قراء البلاد العربية طيلة جيل كامل يتعثرون بأفكار هؤلاء الكتاب النصارى

---

(١) الفكر العربى فى عصر النهضة ـ للدكتور البرت حورانى ـ ترجمة كريم عزقول ـ ١٩٦٨ م ص ١٢٣ ، ١٢٤ ، ٢٩٣ ـ ٣١٠ ، وكذلك : الاتجاهات الفكرية عند العرب فى عصر النهضة ـ على المحافظة ص ١٢٩ بيروت ١٩٨٣ ، وفى سبيل الاطلاع راجع : التبشير والاستعمار فى البلاد العربية ، حيث أثبت هذه الحقيقة بوثائق ومصادر كثيرة .

الجدد فى لبنان ، والتى كانت تدعو صراحة إلى الفصل بين حقلى الدين والدنيا (١) .

يقول الدكتور حورانى :

(فقد أدت محاولة صياغة مبادئ المجتمع الإسلامى صياغة جديدة إلى فكرة مجتمع قومى علمانى يكون فيه الإسلام مقبولا ومحترما لا بل مساعدا على شد الروابط العاطفية بين المواطنين دون أن يكون مصدرا لقواعد الشريعة والسياسة ، إلا أن الكتاب المسيحيين لم يكتفوا بهذا القدر ، بل دفعوا الفكرة إلى اتجاه مختلف) (٢) .

وكانت المجلات التى تدعو يومئذ إلى تلك الأفكار هى :

ـ مجلة « الجنان » (١٨١٠ ـ ١٨٨٦ م) التى أصدرها بطرس البستانى فى لبنان .

ـ مجلة « المقتطف » التى أنشأها سنة (١٨٧٦ م) فى بيروت معلمان نصرانيان شابان من أساتذة الكلية البروتستانتية هما يعقوب صروف وفارس نمر ، ثم انتقلا إلى القاهرة سنة ١٨٨٥ م وبقيت تصدر نصف قرن .

---

(١) حورانى : ص ١٢٥ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٨٣ .

– مجلة « الهلال » التي صدرت سنة ١٨٩٢ م ، أنشأها جورجي زيدان الذي تلقى علومه في الكلية البروتستانتية السورية .

ولقد دعت تلك المجلات في هذه الفترة المبكرة من حياتنا الحديثة ، عبر موضوعاتها المتنوعة الحديثة إلى بناء مجتمع عربي تفضل فيه الروابط القومية والوطنية على الروابط الدينية ، بحيث تكون هي الأساس في التعامل الاجتماعي ، ومكنت بذلك في العصر الحديث للدعوة العلمانية ، ومحاولة إبعاد الإسلام نهائيا عن الحياة الاجتماعية (١) .

وأبرز الذين نشروا هذه الأفكار هم :

– فرنسيس مراش (١٨٣٦ م – ١٨٧٣) وهو طبيب ، ألف قصة رمزية بعنوان (غاية الحق) أودع فيها أفكاره العلمانية .

– شبلي شميل (١٨٥٠ – ١٩١٧ م) كاتب نصراني سوري خريج المدرسة البروتستانتية الانجيلية ، قضى حياته في الدعوة إلى ثقافة علمانية تبنى على العلوم الطبيعية فقط ، ويبعد عنها الإسلام نهائيا وتفصل الدولة عنه (٢) .

---

(١) السابق ص ٢٩٠ .

(٢) السابق ص ٢٩٦ ، ٢٩٩ .

ـ فرح أنطون (١٨٧٤ ـ ١٩٢٢ م) نزح من طرابلس إلى القاهرة ١٨٩٧ م ورأس تحرير عدة مجالات عربية منها مجلة (الجامعة) الشهيرة ، وكانت تنشر فيها الأفكار الأوربية المبنية على أساس العلمانية والمحاربة للدين وألف كتابه (ابن رشد) وضمنه الدعوة الصريحة إلى العلمانية ، والطعن فى الاسلام ، وقد رد عليه الامام محمد عبده رحمه الله تعالى فى كتابه « الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » (١) .

وكان من هؤلاء :

ـ الكاتب المارونى خليل الغانم الذى كان قد أقام فى باريس بعد حل مجلس النواب العثمانى عام ١٨٧٨ م يكتب ويؤلف وكان أحد زعماء جمعية تركيا الفتاة العلمانية الماسونية (٢) .

ـ ونجيب عازورى الكاثوليكى السورى ذو الثقافة الفرنسية الذى انتقل من سوريا إلى القاهرة حيث أقام بها إلى سنة ١٩١٦ والذى كان يدعو إلى استقلال العرب والأكراد والأرمن عن الدولة العثمانية ، وإلى إنشاء المصارف والمستعمرات اليهودية فى فلسطين بزعم أن ذلك يعضد استقلال العرب ويقوى القومية العربية (٣) .

---

(١) السابق ص ٣١٢ .
(٢) السابق ٣١٦ .
(٣) السابق ٣٢١ ـ ٣٢٣ .

– وقسطنطين زريق ، وهو مسيحى أرثوذكسى من دمشق وأستاذ فى الجامعة الأمريكية فى بيروت قد نشر سنة ١٩٣٩ م كتابا عن « الوعى القومى » ذهب فيه إلى تبنى الدولة القومية العلمانية ، مع اعتبار الإسلام تراثا للأمة العربية فحسب ، دون الاسترشاد به من حيث هو شريعة إلهية ، وإنما لابد من اقتباس الأنظمة والمؤسسات الحيوية من الغرب .

– وأدمون رباط ، وهو مسيحى كاثوليكى من حلب معاصر لزريق ، ويحمل الأفكار نفسها .

وتتابع بعدهم كتاب نصارى كثيرون يرمون عن القوس ذاته حتى استطاعوا فى غياب التربية الإسلامية الحقة أن يطفئوا فى نفوس كثير من المسلمين المثقفين جذوة الإيمان بالوحى الإلهى الذى جاء رحمة للعالمين ، وأخرجوه من حيث كونه مستقلا عن الزمان والمكان وظاهرة كونية ومذهبية إنسانية عامة لا علاقة له بوضع العرب المرحلى وإنما شرف الله تعالى العرب بحملها إلى الناس أجمعين .

وكانت النتيجة الحتمية لهذا الاتجاه عد الإسلام مجموعة من القيم والمثل المعلقة فى متحف التاريخ ، يترنم بها الشعراء ، ولاتترك أى أثر فى السلوك الفردى والاجتماعى ، وكانت النتيجة الأخرى

(١) السابق ٢٦٧ ،

الأخذ بمبدأ « العلمانية » فى الحياة وعزل الدين عنها وإنكار شرائعه وأحكامه باعتبارها قد جاءت لمرحلة معينة من حياة العرب ، لم تعد تتناسب مع تغيرات حياتهم الجديدة .

وكانت النتيجة الثالثة محاربة الدعوة الإسلامية التى تؤمن بأن الإسلام وحى إلهى خاتم عام شامل ، وأنه ارتضى للبشرية أصول وقواعد تشريعات حكيمة فى حياة الإنسانية كلها وأنه لابد من تطبيق أحكامه من خلال الاجتهاد المستمر ومراعاة تغير الزمان ، دون تعصب مذهبي ولا طائفى ، وأنه لايجوز عزل الإسلام عن الحياة العامة والخاصة للأمة وأنه لابد من تربية الأمة عليها .

وهكذا توصل كتاب ومفكرو النصارى عبر قنوات موصولة بالمؤسسات الصليبية السرية والعلنية ، ومن خلال توجيهات السفارات الأجنبية فى البلاد الإسلامية إلى ما أرادوا وهدفوا إليه من نظريتهم التراثية هذه للإسلام ، إذ تبنى هذا الاتجاه مثقفون مسلمون وجمعيات ثقافية وأحزاب سياسية ودول قامت بتحويل النظرية إلى واقع فى التربية والتعليم والإعلام والمؤسسات الثقافية المتنوعة : فتربى تيار كبير من أجيالنا الصاعدة فى الثلاثين سنة الأخيرة من حياتنا الحاضرة على هذا الاتجاه التراثى فى النظر إلى الإسلام ، الأمر الذى أدى إلى النتائج الخطيرة الآتية :

— لما عد الإسلام تراثا للأمة أدخل الوحى الإلهى الذى نزل على رسول الله ﷺ إلى صلب « التراث » ومزج بالفكر الذى

نسج عبر التاريخ حوله ، وعومل الكل عند المراجعة والتقويم معاملة واحدة ، يقبل منه ويرفض فى كل زمن حسب طبيعة وتغير الحياة فيه . وهكذا ألغي الإسلام من حيث هو دين مقدس يضبط سلوك المسلم ويعطي للمجتمع الإسلامى سماته الواضحة وخصائصه الحضارية المتميزة..

ـ ولما عد رسول الله بطلا قوميا (حاشاه) قام بدور إصلاحي معين فى فترة سابقة وضع بجانبه رجال ظهروا فى العصر الحديث سموا من قبل هؤلاء بأبطال قوميين وقورن بينهم وبينه ﷺ لأن كل واحد من هؤلاء قام — بزعمهم — فى عصره وظروفه بتجديد حياة الأمة العربية !! بل قد يفهم من كلامهم أن هؤلاء أفضل من رسول الله ﷺ بالنسبة لعصرهم لأن أفكارهم ومبادئهم أكثر تقدمية مما دعا إليه رسول الله ، وهو الإسلام الذى استنفد أغراضه فى نظرهم وغدا عاجزا عن قيادة التغيير الجديد فى الحياة الإنسانية !! .

ـ دفعت هذه النظرة العرقية للإسلام من قبل نصارى العرب وتلامذتهم من المسلمين الغافلين إلى ردود فعل عنيفة لدى القوميات الإسلامية من غير العرب ، حيث بدأت طائفة من أجيالهم المتأثرة بهذا الصراع ترفض الإسلام رفضا يكاد يكون قاطعا ، إذ لما كان الإسلام تراثا للعرب وحدهم مثل حياتهم فى مرحلة معينة من التاريخ

فما علاقته إذن بتواريخ القوميات الأخرى فى ظل هذه النظرة التراثية للإسلام ؟

والحق أن هذه النتيجة الخطيرة كانت مقصودة لذاتها ؟ ذلك لأن وحدة العقيدة والمشاعر والتاريخ والحضارة التى جسدها الإسلام بين الشعوب الإسلامية كانت المشكلة الكبرى أمام المؤامرات الغربية وأحقادها التاريخية الصليبية على مجموع الأمة الإسلامية وبلادها الغنية بالثروات ، ذات المواقع الجغرافية المهمة . فكان لابد من تحطيمها وتمزيقها ابتداء من أوائل القرن التاسع عشر بل قبل ذلك بعدة قرون (١) .

– فى ظل النظرة التراثية للاسلام ، فقد الاسلام قداسته وهيمنته وضعفت مثله وقيمه السلوكية إلى حد بعيد فى المجتمعات الإسلامية ، لاسيما فى إطار الجماعات والهيئات التى تؤمن بتلك النظرة ، بحيث تحولت الأجيال الجديدة فى ظلها إلى كائنات جغرافية تاريخية ، أى لها صلة جغرافية تاريخية بالاسلام لاغير . أما حياتها الواقعية ، فهى بعيدة عن الأهداف الأخلاقية الأساسية التى جاء من أجلها الإسلام ، لا من حيث الالتزام بالعبادات الإسلامية ولا من حيث الالتزام بأوامره ونواهيه العامة . إذ لما كان

---

(١) راجع : حاضر العالم الاسلامى – تعليقات شكيب ارسلان جـ ٢ فصل « مائة مشروع لتقسيم تركيا » .

الإسلام تعبيراً عن تراث الأمة فى مرحلة سابقة ، فكيف يمكن أن يعبر عن واقع آخر يتبع مراحل متقدمة فى نظر هؤلاء ؟

— كان من نتائج هذه النظرة التراثية للإسلام تحويله إلى متحف تاريخى معروض للمشاهدين بجانب آثار السومريين والبابليين والفراعنة ، الوضع الذى حرم الأمة من الطاقات الهائلة فى الإسلام ، والتى تستطيع تربية أبنائها على الفضائل وروح الجهاد والتضحية وتبعدهم عن حياة العبث والضياع والتمزق وتحبب إليهم الموت فى سبيل الله ودحر المعتدين الظالمين .

— عندما عد أصحاب هذه النظرة التراثية ، الاسلام تراثا تاريخيا مرتبطا بمراحل سابقة ، عدوا شريعته ذات الأصول والقواعد الخالدة ، وما بنى عليها من فقه عظيم بمذاهبه ونظرياته أمراً تاريخيا رجعيا متخلفا عن حياة الأمة ! فاضطرهم ذلك إلى استيراد القوانين الغربية التى وضعت لمجتمعات تختلف عقيدة وحضارة وتطوراً عن مجتمعاتنا ، فانتهى ذلك إلى زعزعة الحياة الاجتماعية ، وظهور السلبيات المتنوعة فيها ، مما أفقد الأمة الحيوية والتماسك والتخطيط الموحد لبناء الحضارة والحياة المنسقة المنطلقة من خصوصية عقيدتنا وحضارتنا الإسلامية وتطورنا التاريخى .

الفصل الثالث

التلفيق

أصحاب التلفيق فى ديار الإسلام ثقافاتهم متنوعة واتجاهاتهم عدة ، ولكنهم جميعا تظللهم سماء حضارة واحدة، هى حضارة الغرب بكل أبعادها وفلسفاتها ، حتى أنهم لايتصورون حضارة متكاملة خارج إطار مذهبيات تلك الحضارة لأنهم درسوها ولم يدرسوا غيرها وعايشوها ولم يعايشوا غيرها . فهم من خلال واقع ثقافاتهم لا يتصورون حلولا إنسانية واجتماعية لأزمات الحياة إلا من خلال تلك المذهبيات التى تطورت عبر صراعات معقدة فى القرون الأخيرة داخل حياة المجتمعات الغربية .

وهم من جانب آخر لا يتبرأون من إسلامهم ويصرحون بانتمائهم الدينى للأمة الإسلامية ، ولكنهم يفهمون القضية كلها فى إطار المفهوم الغربى للدين .

والمفهوم الغربى للدين يتلخص فى أن الدين عبارة عن رابطة فردية خاصة بين الإنسان وربه ، فالإنسان يؤمن بمجموعة من القيم والأخلاقيات النابعة من إيمانه بالله تصوغ شخصيته وتجعل منه كائنا اجتماعيا يستقيم سلوكه العام فى إطار الإيمان الدينى الذى يستنبطه هو وحده .

أما الحياة بشموليتها فإنها لابد أن تخضع لحركة العقل المتغيرة عبر الزمان والمكان . حركة العقل هذه هي التي تخطط للحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية ومناهجها .أو بكلمة أكثر شمولية حركة العقل هي التي يجب أن تقود الحضارة بكل أبعادها ، وهي التي لابد أن ترسم لها مذهبيتها في إطار التنوع داخل الحضارة الواحدة ، بلا أسس ثابتة ولا قيم خالدة ولا محور واضح دائم يوحد قواعد الحضارة ويحدد ملامحها الذاتية ويعبر عن حقائق الحياة كما هي في فطرة الأشياء وطبيعة الكون .

إذن إذا كان العقل دائما هو القائد ولا قائد غيره وهو موجد القيم في الحياة ، ولما كانت العقول تتنوع في قدراتها وتتغير في إصدار الأحكام حسب محيطها ، فان حركة الحياة لايمكن أن تبقى على وتيرة واحدة . فلابد أن تتغير في منطلقاتها وفي نتائجها .

والدين قيم ثابتة في الغرب ، والثبات ضد الحركة ، إذن لابد من فصل الدين عن العقل .

الدين ينظف داخل الكيان الإنساني والعقل يخطط لخارجه ، ولابد أن يكون مالقيصر لقيصر وما لله لله . والنتيجة الطبيعية من خلال الصراع الذى دار بين أفكار الكنيسة وحركة العقل الحر في الغرب أن تغلب العقل في داخل كيان الإنسان وفي خارجه ولم يعد الدين إلا مظهرا قشريا ، ضعف تأثيره تدريجا في

حياة الإنسان الغربى حتى وصل الأمر إلى الخواء الكامل والبعد عن عالم المادة والبدء ببيع الكنائس ، إلا إذا تحولت إلى مؤسسة من مؤسسات المجتمع تؤدى دور النادى الثقافى أو الاجتماعى العام .

إن الذين تربوا فى داخل إطار الحضارة الغربية لم يعرفوا عن الدين إلا هذا المفهوم . وكان هذا المفهوم الغربى المناسب للنصرانية منطلق المثقفين المسلمين الذين فكروا بعقلية غربية ، وكونوا فهمهم عن الإسلام على هذا الأساس ، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء دراسة جادة للإسلام الذى يؤمنون به .

غاب عنهم الفرق الجوهرى بين النصرانية والإسلام .

- الاسلام مبنى على التوحيد الخالص ، يعنى الاستسلام المطلق لخالق الوجود وحده لاشريك له . هو الكمال المطلق ، أسماؤه الحسنى هى تجليات صفاته فى الكون ، لامعبود إلا هو ، لا وساطات بينه وبين عباده ولا كهنوت ، ليس هناك استلاب دينى باسمه سبحانه ، وليس فيه تفويض إلهى لإنسان ما .

مجيئه كان ، لكى ينقل الناس من عبادة أنفسهم إلى عبادة خالقهم . كان مجيئه تحريرا للإنسان من داخله ومن خارجه ؛ تحريرا لعقله وقلبه وكيانه بلا وصاية لفرد أو مؤسسة بشرية عليه .

أما المسيحية فإنها تؤمن بثالوث غامض ، أفسد العقول وشوه صفاء عقيدة التوحيد التي جاء بها الأنبياء والمرسلون ومنهم المسيح عليه السلام ، وسلم مصائر الناس إلى رجال الكهنوت ومؤسسة الكنيسة في استلاب كامل لكيان الإنسان وإلغاء أبدى لعقله وحركة غرائزه من خلال مبادئ مصطنعة صاغتها عقول الرجال عبر العصور من خلال متغيرات الحياة ، وفي إطار مبادئ مشوهة وصلت إلى الأجيال التالية دون مراجعة وتقويم ودون نقد واعتراض فعلى سبيل المثال :

قالت الكنيسة إن الأرض مسطحة وهي مركز الكون لأجل عملية الخلاص وقال كوبرنيك إنها كروية تدور حول الشمس وثبت للناس أن الكنيسة كاذبة والعلم هو المصيب .

وقالت الكنيسة إن العلم والإنسان خلقا في حدود عام ٤٠٠٤ قبل الميلاد، وقال العلماء أن عمر الكون يقدر بمئات الملايين من السنين والإنسان بالملايين ، وثبت أنهم على حق والكنيسة مخطئة .

وقالت الكنيسة أن الأقانيم الثلاثة هي واحد، وأثبتت بدهيات الرياضيات أن مجموع ذلك يساوى ثلاثة .

وقالت الكنيسة تبعاً لأرسطو أن الكون مكون من أربعة عناصر ، وقال العلم أن عناصره تزيد على التسعين (وصل الآن إلى ١١٤) وصدق العلم ، كذبت الكنيسة .

وقالت الكنيسة أن الخبز والخمر فى العشاء الربانى يتحولان إلى دم وجسد المسيح حقيقة ، وقال العلم إن ذلك محال والعقل القاطع أيده .

وقالت الكنيسة أن الرهبانية وسيلة للطهر وفضيلة سامية وقالت علوم الاجتماع والنفس أنها تصادم الطبيعة وتفضى بالجنس البشرى إلى العقد والهلاك المحقق .

وقالت الكنيسة إن المرض من الشياطين يمكن مداواته باقامة القداس والتمسح بالصلبان وقال الطب إن سبب المرض كائنات بالغة الدقة يمكن إفناؤها بالمستحضرات الكيمياوية وأخفقت الكنيسة فى حين أثبت العلم جدواه ونجح فى علاجه أيما نجاح (١)

— القرآن الكريم كتاب الإسلام المقدس وصل إلينا بتواتر تاريخى كامل ، أجمع عليه الباحثون والعقلاء ؛ مسلمين وغير مسلمين ، لكن الأناجيل والكتب القديمة وصلت محرفة من خلال اختلافها وتناقضها . لم يؤيد وصوله سالما تواتر بشرى ولا تحقيق تاريخى ، لاسند لوصولها ، ولا وجود لها بلغتها الأصلية .

— القرآن الكريم والسنة النبوية المفسرة له يعالج الحياة الإنسانية كلها ، فى تكوينها ، فى الكشف عن حقيقتها فى ضبط

---

(١) العلمانية ص ٣٣٠ ـ ٣٣١ .

غرائزها ، فى وضع القواعد والمنطلقات الفطرية المناسبة لها . فى بناء مجتمعها على قيم خالدة ، ومحاور جوهرية ثابتة ، تتصل بجوهرها وحركتها ، فى توضيح السنن الكونية أمامها ، فى إيقافها أمام تاريخها وحاضرها ومستقبلها ، فى وضع الأحكام المتنوعة المنسجمة مع مصلحتها فى الحياة .

أما الأناجيل فهى مجموعة من الترانيم الروحية المحدودة ، لاحديث فيه عن الوحدانية ، وسنن الكون وتجليات الأسماء الحسنى فى الوجود . لا حديث فيه عن الإنسان فى شموليته ، لامذهبية فيه لحياته الحضارية ، لاقواعد فيه ولا أحكام التسيير الحياة الفردية والاجتماعية .

— محمد رسول الله ﷺ دعا إلى الإسلام فى شموليته العامة ؛ عقيدة وعبادة وأخلاقا وشريعة ، ولم يكتف بذلك بل فرضت عليه ظروف الجزيرة العربية أن يدخل فى صراع عنيف ضد المشركين من أجل بناء المجتمع الإسلامى ودولته الإسلامية التى كان يجب أن تقوم بتطبيق مذهبية الإسلام فى المجتمع وأحكامه تقريراً وتطبيقاً وتنفيذاً : وغدا رسول الله ﷺ رئيس الدولة الإسلامية ، يحافظ على بيضة الإسلام ويبرم المعاهدات وينطبق شريعة الله فى شؤون الحياة كلها .

لكن المسيح الذى يؤمن به النصارى جاء مخلصا لآثام الإنسان لم يأت بنظام للحياة ، ولم يعمل لتأسيس دولة فى الأرض ، بل صرح على مازعموا أن ما لقيصر لقيصر وما لله لله .

– الاسلام فى كتابه وسنة رسوله ﷺ قدم عقيدة التوحيد واضحة بكل أبعادها ورسم ملامح مذهبية شاملة فى الكون والمجتمع والإنسان ؛ ولكنه لم يلغ دور العقل ، بل ترك له مساحة واسعة فى الحياة الإنسانية للحركة والتغيير والبناء ، من خلال اجتهاد مستمر عبر الزمان والمكان ، وظهر على هذا الأساس فكر إسلامى متطور نام أبدا فى مجالات العلوم الإنسانية كلها ، كانت منطلقات لبناء حضارة زاهرة أثبت فيها الإنسان وجوده وأدى دوره وأظهر فاعليته من خلال عقله وطاقاته .

زد على ذلك أن الإسلام ترك بناء العلوم واكتشاف قوانين المادة وتنظيمها إلى حركة العقل ، فهو قط لم يقدم نفسه بديلا عن العلوم والمعارف العقلية ، بل وضع أمامها الموازين الجوهرية التى تضبط حركتها وفاعليتها ، لكن المسيحية ادعت عبر المؤسسات الكنيسية المعارف المطلقة ، وحجبت نور العقل وقدمت نفسها بدلا عنه وسجنته واضطهدته عندما حاول الانطلاق والحركة . وكان ذلك تمهيداً لتمرد العقل عليها والخروج من دائرتها والكفر

بآلهتها مما دفع المجتمعات الغربية فى القرون الأخيرة إلى الحياة المادية والإلحاد والتحرر الكامل من سيطرة الدين الكهنوتى (١)

لم يحدث فى تاريخ الإسلام أن تكونت مؤسسة كهنوتية تحتكر الفتوى فى الدين وتفرض نفسها على المجتمع لتساند الظالمين من الملوك والأمراء والأغنياء ، لأن الإسلام لم يجعل لأحد بعد رسول الله عصمة وقداسة . فالعلماء فى الإسلام حالهم حال العلماء فى العلوم الكونية والإنسانية ، يجتهدون فى علومهم ويبحثون فى فنونهم ، فمنهم المصيب ومنهم المخطئ ، ومنهم الصالح ومنهم الطالح . وإذا كان المؤرخ الأمين لا يعدم فى كل عصر عالما أو علماء ساندوا الظلم وخانوا الأمة فانه لايعدم كذلك عالما أو علماء أخلصوا لله وصدعوا بالحق وبلغوا رسالة الله وأدوا الأمانة ووقفوا أمام الظالمين وفضحوا الطغاة المستبدين وقدموا أنفسهم قرابين لله فى هذا الطريق .

ولم يخل عصر من هؤلاء ، وكان الناس لعلمهم بأصول الإسلام ومعرفتهم بمواطن الحق ورفضهم لمظاهر الظلم ، يتبعون

---

(١) ويلز - معالم تاريخ الانسانية ٣/٧٢٠ ، ٩٠٢ ، ٩٠٥ ، ٩٨٩ - ت : عبد العزيز توفيق القاهرة / ٧٩٦٧ م . راجع ايضا الكتب التالية :

(أ) أفكار ورجال : برنتن .
(ب) قصة الحضارة : ديورانت ١٤٧ .
(ج) النزاع بين الدين والفلسفة للدكتور توفيق الطويل .

العلماء الصالحين ويحتقرون الدجالين الكاذبين ولايتبعونهم فى أقوالهم .

على أننامن النادر أن نجد فى تاريخنا مجتهداً فى الدين خان الأمانة ، ولم يبلغ رسالة الإسلام على حقيقتها لسبب واضح هو أن من شروط المجتهد المقبول الورع والاستقامة والإخلاص وعدم الخوف من لوم اللائمين .

أما الكنيسة النصرانية ، فلقد كانت عبر التاريخ هى المفسرة للدين بلا منازع . ومن هنا فانها دخلت فى الحياة العامة كجهة مستغلة ظالمة تحالفت وتعانقت مع النبلاء وأصحاب العروش ضد المظلومين والكادحين .

ونشرت بين الناس روح السلبية والانطواء وعدم المقاومة ، بدعوى أن المملكة الحقيقية للإنسان هى فى السماء والآخرة وليست فى الأرض وفى هذه الحياة .

أجل غابت عنهم هذه الفروق الكبيرة بين الدينين والحياتين اللتين بنيتا عليهما،وكانت النتيجة الطبيعية أنهم لفقوا بين الإسلام من حيث هو دين فى زعمهم كدين النصرانية وبين الأنظمة والمذهبيات التى درسوها فى الغرب أو فى بلاد الإسلام كالرأسمالية والاشتراكية والماركسية وكل ما ينبنى عليها من قيم نفسية ؛ فردية واجتماعية .

ومن هنا فلقد همشت قضية الإسلام فى المجتمعات الإسلامية وانحسرت مبادئه وشرائعه وأخلاقياته ، وترك المجال الكامل فى حياة المسلمين لسيطرة تلك المبادئ . ولم يعد حتى للتلفيق معنى فى العملية المنشودة ، التى أبعدت المسلمين عن إسلامهم وحالت بينهم وبين شريعة ربهم وأقحمتهم فى مزالق الاضطراب والتمزق لعدم وجود مذهبية واضحة فى الحياة يجتمعون عليها كى تقودهم إلى الوحدة والتخطيط والبناء الشامل (١) .

الفصل الرابع

الإلحاد

إن انهيارنا الحضارى فى العصر الحديث أمام الغرب نتيجة للعوامل التى تكلمنا عنها فتح الباب على مصراعيه أمام المذاهب المادية الغربية المتنوعة للدخول فى أرض الإسلام والنفوذ إلى عقلية كثير من مثقفيه التى كانت تعانى من فراغ كبير .

ليس الإلحاد جديداً فى المجتمع الإنسانى ، إنما الجديد أنه قد تحول إلى تيارات ثقافية اجتماعية بعد أن كان محصوراً فى حدود

---

(١) راجع كتابى « المذهبية الاسلامية والتغيير الحضارى » حيث ناقشت هذه القضية تفصيلا .

أفراد معينين بفعل الصراع الدموى العنيف بين الكنيسة وبين العقل الحديث الذى رفض العبودية إلى الكهنوت وأفكاره المشوهة للدين والمعطلة للعقل والطاقات الإنسانية والمنحازة إلى قوى الظلم والتسخير .

لقد تحول الإلحاد فى مجتمعاتنا الإسلامية إلى تيارات ثقافية فى الفلسفة والاجتماع والاقتصاد وعلم النفس والتربية والأدب والفن كما عند الغربيين تماما ، خططت لزحزحة الإيمان من العقول والقلوب ، وتفسير عقيدة الأمة وحضارتها تفسيراً ماديا بحتا .

عبرت ألوان الإلحاد كلها إلى المجتمع الإسلامى وبمختلف الوسائل وفى ظل شعارات متنوعة .

فالوضعية تقدمت من خلال الفلسفة وعلم الاجتماع ، وعدت الدين عامة والإسلام خاصة ، مرحلة خرافية مرت بتاريخ البشرية ضمن المفهوم العام للدين عند كونت وغيره من فلاسفة الوضعية .

والماركسية تقدمت من خلال الفلسفة وعلم الاقتصاد ، من منطلق عدها الدين أفيونا للشعوب ، ونتيجة حتمية لتغير وسائل الإنتاج .

والنفعية تقدمت من خلال التربية وعلم النفس من منطلق نسبية الحقائق والأخلاق وعدم الاعتراف بالقيم الوجودية الثابتة .

والوجودية تقدمت من خلال الحرية الإنسانية ورفع القيود عنها وإثبات الوجود للإنسان وحده وإهمال الحديث عن الإله ، وعد الدين قيدا لابد أن يحطم مع القيود الأخرى .

إن مظاهر الإلحاد هذه المعروضة فى الفلسفات المادية المذكورة لم تكن نتيجة طبيعية لتطور الأفكار فى مجتمعاتنا ، وإنما كانت نتيجة الصراع الفكرى الطبيعى داخل منظومة الحضارة الغربية وتطورها المتوتر .

ولم تدخل تلك الفلسفات إلى مجتمعاتنا إلا كما تدخل أية بضاعة مستوردة ، مستغلة الفراغ الجاهل بالإسلام وبتطور الحضارة الغربية ، الذى كان مسيطرا على المجتمعات الإسلامية .

نعم لقد كانت منطلقات تلك الحضارة ومصطلحاتها ومفاهيمها العامة وردود فعلها غريبة على أوساطنا الاجتماعية ، ثم ألفها جمع من الناس واستمعوا إليها ، بل لقنوا إياها ضمن الغزو الشامل لمظاهر الحضارة الغربية لحياتنا ، إذ المأساة الكبرى التى تجسدت فى حياتنا أن هذه المبادئ لم تدخل أفكارا مجردة ، وإنما دخلت ضمن تقدم مادى هائل وإنجازات واقعية وتنظيمية فى مظاهر الحياة كلها . فظن هؤلاء المثقفون أن الغرب لم ينجز تقدمه إلا بقيادة المذهبيات المادية وأن الحضارة كل لايتجزأ ، فلا يمكن فصل علومها من ثقافاتها المادية ، ولايمكن لنا أن نتقدم إلا من خلال عملية الهضم الكامل لأجزائها المتنوعة .

ولما كان الدين قد لفظ فى إطار تلك الحضارة ، فلابد إذن — فى زعمهم — أن نلفظ الإسلام جملة وتفصيلا من حياتنا الحضارية الحديثة .

لقد تمكنت هذه النظرة الخاطئة المأساوية من حياتنا وتغلغلت فى مؤسساتنا الجامعية والثقافية والإعلامية وقذفت المطابع عشرات الألوف من الكتب والأبحاث والدوريات والمجلات والمحاضرات فى الأسواق تدعو كلها تصريحا أو تلميحا إلى تلك المذاهب المادية ووصل الأمر إلى تدريسها رسميا فى بعض البلاد الإسلامية بدل درس التربية الدينية (١) .

على أن أخطر تلك التيارات المادية على إسلامنا وحضارتنا وواقعنا ومستقبلنا المادية الماركسية ، للأسباب التالية :

— إن الماركسية تقدم فى إطار الفهم المادى للوجود نظرية مفصلة تبدأ من إنكار وجود الله إلى أصغر قضية من قضايا لإنسان الفكرية و الاقتصادية والفنية المبنية على تلك الأفكار.

— لاتؤمن من منطلق عقيدتها الأممية بمفهوم الأمة العربية أو الأمة الإسلامية ، وترفض الحديث عن أصالتها وخصائصها الذاتية وإمكانية تطورها الحضارى الخاص .

---

(١) دائرة معارف الحياة التركية الرسمية ١/١٣٢ .

– تؤكد فى مسيرتها على الجانب الاقتصادى وتتحدث عن الظلم المتولد من سيطرة الطبقة الغنية المترفة على الطبقة الفقيرة المعدمة .

– تعد نفسها أعلى درجة فى سلم ترقى الفكر الإنسانى وتقطع كل حوار مع مخالفيها للتفاهم ابتداء من الأديان إلى الفلسفات الفكرية إلى الثقافات المتنوعة .

– تتبنى فى أسلوب نشر فلسفتها المادية الإرهاب الفكرى العنيف ولا تلتفت إلى أصول المناظرة العلمية والنقاش الهادئ ولاتحترم فكر الخصوم بأى وجه من الوجوه ، وتستعمل الحرب النفسية من خلال استعمال الأدبيات المتشنجة والمتوترة ، تصل دائما إلى الشتيمة والسباب واستعمال الأوصاف القبيحة التى تزعزع العوام وضعاف العقول .

– الماركسية ليست تيارا فكريا عاما بين المثقفين كباقى الفلسفات المادية ، وإنما هى – لاسيما إذا ارتبطت باللينينية – عقيدة يؤمن بها حزب يقوم على أساس تنظيم دقيق يتبنى طريق العنف فى الوصول إلى أغراضه ووضع مبادئه موضع التنفيذ .

– ترتبط جذريا وعضويا ومصيريا بمركز قوة خارجية هى الاتحاد السوفيتى ، إحدى أقوى الدولتين الاستعماريتين المسيطرتين على مقدرات البشرية .

وفى هذا من الخطورة الكبيرة جداً على مستقبل الأمة الإسلامية ، لأن الاتحاد السوفيتى تحتل الجمهوريات الإسلامية ؛ ولها مطامع استعمارية واضحة فى العالم الإسلامى .

إن قضية الاحتلال العسكرى السوفيتى لدول أوربا الشرقية وسحق كرامة شعوبها واستدعاء الحزب الماركسى اللينينى الأفغانى لها علنا لاحتلال أفغانستان والتخطيط للقضاء على الإسلام فيها وذبح وتشريد الملايين من أبنائها مثال واقعى حاسم أمام كل منصف وعاقل .

– إن الخلاف الجذرى بين الإسلاميين العقائدين الملتزمين وبين الماركسيين ، ليس لأن الماركسيين يدعون إلى إنقاذ الأكثرية المظلومة من الأقلية الظالمة ، والإسلاميين لايؤمنون بذلك ولا يتبنونه فى مذهبيتهم الإسلامية ، وليس لأن الماركسيين تقدميون يحاولون – فى زعمهم – تحريك التاريخ إلى الإمام ، والإسلاميين لايعملون من أجل ذلك . بل الخلاف الأعظم الأساسى أن الماركسيين فى ضوء إيمانهم بالنظريةالماركسية المادية ينكرون الإسلام من حيث هو دين ووحى إلهى ، ويعدونه ثقافة تاريخية متأخرة وفكراً بشريا كسائر الأفكار أوجدته ظروف اقتصادية معينة . استمع إلى واحد منهم يقول :

(إن الثقافة هى كل مظاهر التعبير الإنسانى ، وكل عمل يعد تعبيراً ، لا الأدب والفن وحدهما بل كذلك الديانات ..)(١).

ويعد الإسلام بناء على ذلك « أيديولوجية » مرحلية فيقول :

(إن الماركسية والإسلام أيديولوجيتان تحملها وتروجها وتستخدمها قوى اجتماعية تكون فى زمن معين) (٢) .

ومن المعلوم عند الماركسيين أن القوى التى حملت وتحمل الإسلام هى قوى الرجعية والتأخر والاستغلال ، أما القوى التى تحمل الماركسية فهى قوى التقدم والثورة، ولذلك فان الكاتب السابق يختار الماركسية دون تردد فيقول :

(إن أحسن مدخل وأحسن مدرسة للفكر التاريخى يجدها العرب فى الماركسية) (٢) .

ثم ينتقل إلى التصريح بأمر خطير فى حسم قاطع فيقول :

(ورب معترض يقول: ستكون حينئذ ثقافتنا المعاصرة تابعة لثقافة الغير ! وليكن إذا كان فى ذلك طريق الخلاص) .

ولكن كيف يكون طريق الخلاص فى تركنا لإسلامنا وخصوصية حضارتنا وثقافتنا ؟ هذا ما لم يجب عنه الكاتب ، لأن دون إثبات ذلك خرط القتاد .

---

(١) عبد الله العروى – العرب والفكر التاريخى ص ٨٩ .
(٢) السابق ص ١٣٢ .

ن السهل جداً أن يدعى أى إنسان ما يشاء ، ولكن الأهم من ذلك تقديم البرهان والدليل ؟ .

إذن كيف يمكن أن تكون عبودية أمة الإسلام لثقافة الغير طريقاً لخلاصها ؟ لاسيما الثقافة التى توجب الانسلاخ الكامل من عقيدتها الإسلامية ، والتنازل النهائى عن خصوصية شخصيتها الحضارية المستقلة تمهيداً لسيطرة أمة أخرى عليها .

وقد يتعجب القارئ فيتساءل ؟ كيف يمكن لإنسان مسلم ، ولد من أبوين مسلمين ويعيش فى المجتمع الإسلامى أن يمتلك جرأة المناداة الصريحة بمحو الإسلام وحضارته فى المجتمع ؟

أقول : لاعجب فى ذلك ، مادام الماركسيون يعدون الإسلام دينا وتاريخا وحضارة ثقافة متخلفة .

استمع إلى كاتب آخر منهم يقول عن الإسلام :

- (إن الإسلام قد اكتسب ملامحه الأولى الأساسية من حيث هو تعبير عن الحاجات والمصالح المتنامية للحركة التجارية الواسعة التى كان يكبح من نموها الاقتتال العنيف بين المجموعات القبلية)(١)

إذن ، الإسلام ليس دين الله الخالد فى نظر الماركسى إنما هو ثقافة كانت تعبيراً لوضع اقتصادى معين فى المجتمع المكى .

---

(١) الماركسية والتراث العربى الاسلامى ص ٧ لمجموعة من الكتاب الماركسيين .

استمع إلى كاتب آخر منهم فى هجوم شنيع على رسول الله ﷺ يحمل أحقاد جميع مستشرقى اليهود والنصارى فيقول (إن كون المشرع « يقصد رسول الله » ابنا بارا للحضارة المكية وسجينا محاصراً بالنصوص اليهودية جعله فى أحسن الأحوال مهذبا لعلاقات انتاج الإنسان لا ثائرا على عفنها) (١).

وهكذا يحول هذا الماركسى الرسول الكريم الذى أرسل رحمة للعالمين بعقيدة التوحيد وشريعة العدل وحضارة الإنسان الخليفة إلى تلميذ لنصوص اليهود يرتضى أنصاف الحلول ولايثور على عفن الظلم . وهو عين ما قاله مستشرقو اليهود منذ القرن التاسع عشر وفى ضوء محاضرة كاملة لأقوال اليهودى ماركس بلا مناقشة ولا مراجعة ولا أدنى صلة بالحقائق الإسلامية الالهية التى أعطت للأمة شخصيتها الحضارية فى التاريخ ، وبلا أدنى مسؤولية فى مراعاة شعور مئات الملايين من المسلمين .

ويتقدم الماركسيون أكثر فأكثر لإلغاء الإسلام نهائيا وإخراجه من حياة المسلمين عندما يقسم أحدهم الخطاب المعاصر إلى نوعين من الخطاب .

---

(١) السابق ص ١٠٣ . انظر ايضا كتاب المراة فى الاسلام ، لنفس الكاتب ، هيثم مناع حيث يرفض بشكل قطعى النظام الاجتماعى الاسلامى من خـلال القرآن والسنة ، فيعده نظاما عبوديا عفنا من منطلق فكرة الماركسى .

يصف أولهما بالخطاب الديني أو الكتابة الدينية فيزعم أن حضور الذات الإلهية دائم في هذا الخطاب وأن (اللا مفكر) فيه هو الإنسان . ويقصد – كما هو واضح في تخطيط مقاله – بالخطاب الديني الإسلام نفسه الذي يصفه بانه مبني على الكتاب والسنة . ويرفض الكاتب هذا الخطاب ، ويدعو إلى تبني خطاب أنسي يكون الحضور الدائم فيه للذات الإنسانية، ويكون اللامفكر فيه هو الله (١) .

أي أن هذا الكاتب بصريح العبارة يريد طرد الله من حياتنا نهائيا ، لأن وجوده من منطلق الماركسي خرافة،والإسلام المبني عليه مرفوض . وهذا هو الهدف الواضح الذي إليه يدعو الكاتب في مقاله ويعالج القضية كلها تحت مظلة « السلفية » (٢) .

وما قالة الكاتب من أن الإنسان (لا مفكر) في الكتابة الدينية (الإسلامية) جهل كبير بالإسلام وأصوله وقواعده .

---

(١) انظر حولية (دروس حـــول الحركة الســـلفية) مـــن منشورات الجامعة ـ السلسلة الفكرية · (١) صفحة (٨) مقالة في (بياض الفكر الســـلفي ـ لكاتبه فائق محمد ـ دار النشر العربية الدار البيضـــاء ١٩٨٣) والخطير أن هذه الحولية توجه الى طلبة البكالوريا في الثانوية ·

(٢) معظم المقالات التي نشرت في المصدر الســابق يمشي في هذا الاتجاه · كذلك انظر : مجلة (الزمان المغربي) عدد ١٨ السنة ٥ وهو خاص بمعالجة الدين والدولة · وكل مقالاتها تمشي في هذا الاتجاه ·

ذلك لأن الإسلام جعل الإنسان خليفة الله فى أرضه فكيف يمكن مواجهة أقداره والقيام بدوره على الوجه الأكمل دون استعمال طاقة العقل .

إن القرآن الكريم دعا الناس فى مئات الآيات إلى العقل والنظر واستعمال الطاقات الإنسانية كافة (١) .

إن القرآن الكريم وضع دستور الحياة من حيث القواعد العامة

---

(١) راجع على سبيل المثال فى اثبات هذه الحقيقة بتفاصيلها الى (الفكر الفلسفى فى الاسلام) للدكتور سليمان دنيا و (التفكير الفلسفى فى الاسلام) للدكتور عبد الحليم محمود ونشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام للدكتور على سامى النشار . ويعترف الدكتور حسين مروة (الماركسى) بهذه الحقيقة بمناسبة حديثه عن التوجه الاجتماعى الذى يشكل اساس المبادىء التشريعية الاسلامية فيقول: ذلك فضلا عن سبب ثالث يضاف الى السببين المذكورين هو كان الفكر التشريعى ، أى الفكر المعبر عن التشريعات المنظمة للعلاقات الاجتماعية انما هو باتفاق الفقهاء فكر اجتهادى ، ففى حين هم متفقون على أن ما يتعلق بالعقائد الاجتماعية ينحصر فى الوحى يرون مقابل ذلك أن ما يتعلق بالتشريع بعد أن استكملت أصوله فى عهد النبى يترك للعقل أن ينظر فى استنباط الأحكام التطبيقية لهذه الأصول . وهذا النظر العقلى هو ما يدل فى اطار الفكر الاجتهادى. والفكر الاسلامى منفتح على الاجتهادات النظرية فى مجال التفاصيل من حيث علاقته بالتعامل مع الواقع الاجتماعى فى مسارات حركته أى صيرورته التاريخية .

ص ٢٩ ــ ٣٠ مقالته ضمن مجموعات مقالات نشرت تحت عنوان (دراسات فى الاسلام) ط ٢ س ١٩٨١ بيروت .

والمذهبية الشاملة ، ثم ترك مساحة كبيرة لعقل الإنسان كي يتحرك فيها حتى فى تفسير القرآن والسنة النبوية .

وما الاتجاه العقلى فى التفسير وتأليف مئات المجلدات فى الاجتهاد التفسيرى وإعمال العقل فيه إلا دليلا قاطعاً على هذه الحقيقة .

إن العقل فى الإسلام له وظيفة أساسية وهى اكتشاف عالم الشهادة (المادة) وتسخير القوانين فيه وإنشاء الحضارة فى ظل الفهم والتخطيط والتنظيم .

وماختمت النبوة إلا لكي يأخذ العقل دوره الكامل فى حركة الحياة والتغيير والبناء .

لو كان الكاتب على علم بأصول الفقه الإسلامى أو أى كتاب أصولى بعقلية محايدة منصفة لعلم أن مصادر كثيرة لضبط الشريعة الإسلامية عامة ، هى مصادر عقلية فى ظلها يستطيع المفكر الإسلامى استنباط الفكر الفقهى بشموله واتساعه .

وما ليس موجودا فى القرآن الكريم والسنة النبوية ، أوكل اكتشافه والوصول إلى أسراره إلى العقل الإنسانى ، وحركة اجتهاده فى الإسلام خير شاهد على ذلك .

لو لم يكن العقل مفكرا فى الإسلام ، إذن كيف ظهر الفكر

الإسلامى عبر التاريخ ، على تنوعه الفلسفى والكلامى والصوفى والفقهى والأصولى (١) .

كيف توصل المسلمون إلى اكتشاف كثير من قوانين العلم من الرياضيات والهندسة والفلك والطب والصيدلة والكيمياء والجغرافية والتاريخ .

أليست ملايين المخطوطات فى العلوم والآداب والفنون فى حضارتنا الضخمة دليلا قاطعا على حركة وحرية الفكر .

يكفى الإسلام فى تقديره طاقة العقل وتشجيعه على تحريكه المستمر ، أنه جعل للخطأ فى الاجتهاد أجراً ، حتى لايتردد المسلم فى التفكير المستمر لإيجاد الحلول الصائبة فى قضايا الحياة كلها .

نقد المنهج الماركسى :

— الماركسيون كلهم درسوا الماركسية قبل دراستهم للإسلام وفهموا الدين من منظور الحياة الغربية مجسدة فى تاريخ الكنيسة التى اتسمت مواقفها التاريخية بتحريف الوحى الإلهى وإلغاء دور العقل واحتقار الإنسان وإقرار المظالم واستغلال الدين ببشاعة نادرة من أجل مصلحة طبقة رجال الدين النصرانى الذين تحالفوا مع الملوك والنبلاء الطغاة .

---

(١) راجع للمؤلف بحث (تطور الفكر الاسـلامى) مجلة (دعوة الحق) المغربية العدد / ٢٣٦ · رجب ١٤٠٤ ·

وظن الماركسيون أن مقولة ماركس حول الدين تنطبق على الإسلام من منطلق إسباغهم صفة العصمة والقانون العلمي على تلك المقولات ؛ وأدى بهم الأمر إلى الغاء عقولهم جميعاً تجاه عقل ماركس ، فلم يحاولوا عرض أقواله على بساط البحث والمراجعة .

وكان همهم الممم ترديد تلك الأقوال والمقولات ومحاولة إثباتها فأوقعوا أنفسهم فى جمود عقائدى قاتل ، انقلب بمرور الزمن إلى دين يؤمنون به إيمان تعصب ، ملغين عقولهم تجاهها ومضحين بانسانيتهم فى سبيل ذلك (١) .

ولم يحاول أن يخرج من هذا الأسر الفكرى والعبودى الشائن لأقوال رجل عاش فى بيئة وظروف معروفة قبل أكثر من قرن ، إلا جمع قليل من أهل العقول النيرة الذين أدركوا الثغرة الكبيرة فى منهج العبودية لشخص ماركس ، وظهر لهم أن التفسير الأحادى لحركة التاريخ خرافة ، لم تعد تليق بالعقل المنطقى البرهانى العلمى .

---

(١) ينقل الدكتور رشدى فكار فى كتابه «فى المنهجية والحوار» أن « ماركس » تراجع عن موقفه الالحادى فى آخريات أيامه ، يظهر ذلك من مراسلاته مع البابا ومع زعيم ثورة الفلاحين فى المانيا انذاك (فنريل) وموقفه من البلانكيين ، ومظاهراتهم المعادية للدين ، وكذلك عبر تصريحه له (لم يك أبدا الهاتف بموت الاله الذى ما تنكر له ، ـ حسب زعمه ـ وانما كان يسعى ويهتف دائما بتحرير الانسان ، فالمشكلة ليست فى انكار الاله ولكن فى تحرير الانسان) . يقول الدكتور : لقد تراجع كارل ماركس ، فمن الأولى أن يتراجع مريدوه وفاء له ولفكره . ص ٧٢ .

ويحضرنى من هؤلاء الأساتذة مصطفى محمود وقدرى قلعجى ومنير شفيق من الماركسيين العرب ، الذين تراجعوا عند دراستهم الإسلام عن مواقفهم السابقة ، وتبين لهم أنهم كانوا يعيشون فى أكذوبة تاريخية كبيرة .

ومن هؤلاء (رجاء غارودى) من أكابر فلاسفة الماركسية الذى اكتشف تلك الثغرة الكبيرة فى المنهج ، وبحث عن الحقيقة خلال سنوات طويلة من الممارسة الفكرية الجادة ، حتى توصل إلى اكتشاف قانون الوجود الذى أعده لب الحقيقة الكونية ، ألا وهو الإسلام الذى آمن به .

— الماركسية حلقة من حلقات التطور الفكرى فى إطار الحضارة الغربية ، بدليل أن مصادرها هى الفلسفة الألمانية والاقتصاد الإنجليزى والاشتراكية الفرنسية (١) ومن المعلوم أن كل حضارة لها خصائصها الذاتية (٢) عبر تطورها الحضارى . والدراسات الأولية فى التاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس التى اعتمد عليها ماركس والماركسيون من بعده ، يعبر جميعها عن الوجوه المختلفة لتلك الحضارة .

---

(١) راجع (كارل ماركس) لغارودى،فصل مصادر الماركسية.
(٢) يقر الكاتب الماركسى حسين مروة هذه الحقيقة (دراسات فى الاسلام) ص ٤٧ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٦٢ ، ١٠٠ ، ١٠١ .

لا بل إن ماركس فى مفاهيمه العامة حول الشرق لم يستطع أن يتخلص من إطار الاستشراق الأوربى الذى تحدثنا عنه . وقد أثبت هذه الحقيقة حول ماركس الدكتور إدوارد سعيد (١) .

ومن جهة أخرى فان مرور قرن كامل على تلك المقولات الماركسية نظرية وتطبيقاً ، يكفى لكى يحول بين الماركسيين المسلمين وبين العبودية الشائنة لتلك المقولات ، بحيث يضحون من أجل إثباتها بعقيدتهم وحضارتهم وخصوصية أمتهم ومصالحها الحاضرة والمستقبلة .

قلنا نظرية وتطبيقاً .

لأن النظرية الماركسية قد تعرضت إلى نقد فلسفى اقتصادى اجتماعى متنوع ، فلم تعد إلا وجها من وجوه حركة الاجتهاد الإنسانى ليس إلا ، فهى « أيديولوجية » من الأيديولوجيات الكثيرة ، وليست حقيقة فلسفية أو حقيقة من الحقائق العلمية ، وإنما هى كما يقول الدكتور رشدى فكار « إلى حد ما أجتهاد معمق فى فلسفة التاريخ ، يهدف إلى إبراز العامل المادى وخصوصاً الاقتصادى كقوى وعلاقات للانتاج ، تحدد نمطه » (٢) ندرسها

---

(١) الاستشراق ١٧١ .

(٢) فى المنهجية والحوار ص ٣٦ .

كما ندرس غيرها من النظريات التي وصلت إلينا من الغرب ، قد نقبل بعضها ونترك بعضها .

وأما التطبيق الماركسي ، فقد أدى في الواقع إلى أقسى أنواع الاستلاب الإنساني في تاريخ البشرية ، سواء أكان ذلك على مستوى التطبيق الداخلي في الدول التي أخذت بالنظرية (١) أم على مستوى سيطرة الدولة الماركسية المركزية « روسيا » على مصائر شعوب مظلومة وسحقها تحت عجلة وجه واحد من أقسى وجوه الاستعمار الغربي في العصر الحديث (٢) .

— إن المشكلة الكبرى أن الماركسيين في مجتمعاتنا يعتقدون أن الإسلام سيموت كما تموت أية ثقافة أخرى ، حسب الحتمية التاريخية الماركسية في زعمهم ، ولكن الحقائق الذاتية عن الإسلام والاستقراءات التاريخية والحديثة في دراسة حياة الأمة الإسلامية تثبت أن الإسلام لا ولن يموت فهو قوي بعقيدته الفطرية الواضحة

---

(١) راجع : « الطبقة الجديدة » للفيلسوف اليوغوسلافي ميلوفان جيلاس و « منعطف الاشتراكية الكبير » لجارودي و « اثرت الحرية » لفكتور دافشنكي ، وأيضا كتاب (العلمانية) لسفر بن عبد الرحمن ص ٢٥٢ ـ ٢٥٨ و ٣١٨ ـ ٣٢٦ حيث نقل آراء عدد من المفكرين الماركسيين وغيرهم في نقد المجتمعات الشيوعية مثل ، آرثر كوستلر واندريه جيد وبرتراند رسل ولويس فيشر .

والكتاب كله دراسة علمية جيدة لقضية العلمانية وجذورها وتطورها ومظاهرها في الغرب .

(٢) مثال على ذلك « تركستان الاسلامية » و « افغانستان » ودول أوربا الشرقية ..

وشريعته الإنسانية العادلة ، وهو مستقبل الأمة الإسلامية لأنه تلبس بها تلبسا لا فكاك عنه ، حتى فى الجمهوريات الإسلامية التى استعمرها الروس منذ أكثر من قرن ، وبذلوا فيها المستحيل فى سبيل القضاء على الإسلام فيها .

فاذن لابد للماركسيين عندنا من الرجوع إلى آدميتهم وعقولهم ومراجعة مواقفهم ورصيدهم الفكرى ، وترك الجمود العقائدى وأسلوب التشنج والغوغائية وعدم العلمية والمنهجية فى النقاش ، والدخول مع الإسلام فى حوار حقيقى مخلص ودراسته دراسة واعية واستنباط قوانين حركة مجتمعنا الحديث منه ودفعه إلى الأمام ، وتحقيق الآمال وعدم ضياع الجهود من خلال التمزق والصراع الذى يحدث أعظم الأضرار بالأمة ويرفد الانحطاط بعوامل البقاء والتمكين (١) .

---

(١) من الانصاف أن نذكر أن الدكتور حسين مروة على الرغم من انه مازال ينطلق من الفكر الماركسى ويعادى الفكر الاسلامى الحديث وحركته الصاعدة ، لكنه بدأ مثل هذا الحوار فى مقالته (الاسلام الثورة فى ضوء المنهجية العلمية) حيث أدرك فى الاسلام القضايا الآتية : (أ) كون أن التوجه الاجتماعى يشكل اساس المبادىء الاسلامية ص ٢٩ ، ٨٠ ، ٨١ . (ب) ادراكه لعملية الاجتهاد العقلى فى الاسلام ص ٢٩ . (ج) ادراكه لشمولية الاسلام ص ٣٥. (د) ولمرونة الشريعة الاسلامية ص ٨٤ ، ٨٨ . (هـ) اشارته للتفريق بين الدين المستقل عن الزمان والمكان والتراث المرتبط بهما ص ٨٤، ٨٨ . (و) ثم التاكيد أن الاسلام كما استغله الظالمون ، يمكن أن يعتمد عليه الكادحون فى نضالهم ضد الظلم ، وهذا بحد ذاته فى رأيى خطوة مهمة الى الامام لا بأس بها فى سبيل استعادة الذات .

إن آمال الماركسيين المسلمين — إن صدقوا — من الانحياز الكامل إلى الفقراء وإنقاذ الإنسان من الاستلاب والدخول إلى عصر « التكنولوجيا » والعلم يمكن أن تجرى فى إطار مذهبية الإسلام فى الوجود (١) ، إذا أمكن لهم فهمها فى أصولها الصحيحة القويمة .

وعند ذلك يعود الماركسى المسلم إلى أصالته ، فلايحتاج أن يكون ملحدا أو منكرا للاسلام جملة وتفصيلا أو ينسب نفسه إلى الماركسية (٢) .

إن الفكر الإسلامى الحديث يرحب بدراسة النظريات الغربية كافة ومنها الماركسية فى إطار المنظومة الحضارية الإسلامية والاستفادة منها فى أساليب تحقيق التوازن والعدل ، وإنهاء شتى أنواع التسخير والمظاهر الطاغوتية فى المجتمع الإسلامى .

إننى أعترف هنا باننى ينتابنى حزن عميق عندما أقرأ لكثير من الماركسيين المسلمين الأذكياء ، لأننى أجد عندهم طاقات فكرية كبيرة ، لو صرفوها لخدمة الأهداف الإنسانية النبيلة التى

---

(١) راجع كتاب (المذهبية الاسلامية والتغير الحضارى) للمؤلف .

(٢) يقول الدكتور رشدى فكار « وخطيئة الغرب وهمومه تعنى الغرب والغربيين ولا داعى لتصديرها كما صدرت الينا كل بضائعهم الاستهلاكية » فى المنهجية والحوار ص ٨٨ .

يدعون إليها فى اطار الإسلام الحق ، إذن لنهضت الأمة ، وتوحدت الجهود والمنطلقات ، وانتهى الطغيان وألحقنا جميعاً بعوامل الخمود والجمود التى عطلت مسيرتنا التاريخية هزيمة كبيرة .

إن جارودى عندما غير مسار حياته ، وملأ الثغرات الخطيرة فى منهجه باعتناقه الإسلام ، لم يتراجع عن إيمانه بالحرية وحبه للإنسانية ورفضه للعنصرية ولم يتخل عن عشقه للعدل الاجتماعى وانحيازه الكامل للمسحوقين فى المجتمعات البشرية ، ولكن تراجع وتخلى فقط عن التفسير الأحادى الماركسى للتاريخ ثم عن المنهج الخاطئ ، منهج التلفيق والدمج (١) .

فجدير بالماركسيين الذين ولدوا فى أسر مسلمة أن يعتنقوا الإسلام من جديد ، ولا أشك من خلال دراستى المتواضعة للإسلام أنهم إن فعلوا ذلك فلن يحتاجوا التنازل عن آمالهم وآلامهم ونضالهم فى سبيل إنقاذ مجتمعاتهم والإنسانية جميعاً ، بل يزدادون عند ذلك قوة إذ سيضيفون إلى قوتهم الفكرية البشرية قوة الروح الإلهية التى ستوقفهم على أرضية الإسلام المشترك ، من حيث هو دين الله الخالد وعقيدة الأمة وأملها فى إنقاذها من التلكؤ الحضارى الذى وجدت نفسها فيه .

---

(٢) المذهبية الاسلامية ص ٣٠ .

نقد الأزمة عموما :

– إن أصحاب الأزمة ، عندما يحكمون على الإسلام لايفرقون بين الوحى الإلهى (القرآن والسنة) وبين التراث أو الفكر الذى بنى عليه والذى يعبر عن فهم المسلمين فى كثير من قضايا الحياة متأثرين بتغيرات الحياة البشرية ، أى أنهم ربطوا الوحى الإلهى بالزمان والمكان . والمنهج العلمى السديد كان يقتضى منهم الفصل بين الأصول الإسلامية وما بنى عليها من فكر بشرى متغير .

وإذا كان الماركسيون لايفعلون ذلك لأنهم لايؤمنون بالوحى الإلهى ، فما بال غيرهم الذين يزعمون أنهم مسلمون ملتزمون بالوحى . مابالهم يحكمون على الإسلام من خلال أخطاء واجتهادات الفترات الأخيرة .

أليست هذه طريقة المستشرقين ومناهجهم فى دراسة الإسلام ؟

ومن مظاهر الثغرة المنهجية ضمن هذه المسألة أن الماديين يصورون للناس الفرق والمذاهب الفكرية فى الإسلام وكأنها هى الإسلام على الرغم من أنها لاتمثله ، بل تمثل الظروف الحضارية التى أنتجتها ، ولم تعد ذات قيمة معرفية كبيرة فى عمومها تعبر عن التغيرات الحضارية الجديدة ، ثم ينتقلون من هذه الدراسة المتحفية إلى المذاهب والفلسفات الحديثة التى تثير قضايا إنسانية معاصرة ، لكى يقدموا مقارنة غير متكافئة . فالجيل الحديث عندما يقرأ

آراء تلك الفرق والمذاهب فى إطار الحضارة الإسلامية القديمة ، يعدها بعيدة عنه وعن مشاكله وصراعه مع عوامل التخلف فينتقل منه إلى الآراء والأفكار الحديثة ، دون معرفة كافية باصول الإسلام وأنظمته ومقاصده وقواعده العامة فى رفد الحياة الإنسانية بكل جديد ، يستجيب للتغيير والتقدم .

— إن أصحاب الأزمة لم يحاولوا اتباع أسلوب دراسة الوحدات الموضوعية فى التعرف على مذهبية الإسلام فى الكون والحياة والإنسان ، ذلك الأسلوب الذى كان يجب أن يتنبهوا إليه وهم يزعمون أنهم يوظفون فى دراساتهم المناهج الغربية . إذ أن تلك المذاهب فى دراسة المشكلات تبدأ من دراسة الجزئيات فى القضية المعينة على صعيد واحد ، لاستخراج النظرية الكلية .

لقد ظل هؤلاء نتيجة لمنهجهم الخاطئ يدرسون من الإسلام أموراً مجزأة هنا وهناك ، لاتكفى للوصول إلى الفهم السديد وبناء تصور كامل عن الكليات الإسلامية .

ولو كان هؤلاء حريصين على إسلامهم ، لاستطاع كل منهم من خلال اختصاصه أن يكتشف فى الإسلام القضية الكلية التى تتصل به ، مستفيداً من الدراسات والمناهج التى تعلمها ضمن إطار المنظومة الثقافية الحديثة ولكن فاقد الشيء لايعطيه كما قالوا .

إذ الذين ينطلقون من الفراغ كيف يستطيعون توظيف

معارفهم فى صالح اكتشاف الكنوز المعرفية الموجودة فى الإسلام وتراثه الإنسانى الخالد .

– إن أصحاب الأزمة يدرسون الإسلام وقضاياه وفكره وحضارته ومظاهر السلبية والانحطاط فى بعض فترات تاريخه من خلال الأفكار والمقولات التى نتجت عن تطور مجتمعات أخرى تدخل ضمن إطار المنظومة الحضارية الغربية ذات الأصول الرومانية النصرانية المادية .

استمع إلى أحدهم وهو ينتقد الخطاب العربى المعاصر بوجوهه المختلفة فيقول محدداً منهجه :

« سيلاحظ القارئ أننا نوظف مفاهيم تنتمى إلى فلسفات أو منهجيات أو قراءات مختلفة متباينة ، مفاهيم يمكن الرجوع ببعضها إلى كانت أو فرويد أو باشلار أو ألتوسير أو فوكوا، بالإضافة إلى عدد من المقولات الماركسية التى أصبح الفكر المعاصر لايتنفس بدونها » (١) .

ولايخرج الكاتب من المسؤولية أنه يقول عقب هذا الكلام : أنه كثيرا ما يتعامل مع تلك المناهج والمقولات بحرية واسعة ووعى

---

(١) الخطاب العربى المعاصر – للدكتور محمد عابد الجابرى ص ١٢ ، ط ١ بيروت ١٩٨٢ .

تام . لأن هذه الحرية أيضاً تجرى فى إطار المنهجية الغربية نفسها ، ولكن لايغنى عن المنطلق الصحيح الذى يجب أن ينطلق منه كل مفكر مسلم وهو الانطلاق من الوحى الإلهى دائما .

إذ ليس من المنطقى لكاتب لاينكر أنه مسلم ، وهو يعالج الخطاب العربى المعاصر ، أن يتجاهل مذهبية الإسلام تجاهلا تاما . بل التعريض بها تحت مظلة « السلفية » أو ما يسميه بالمنهج السلفى فى التفكير فى قوله « العقل السلفى إذن مكبوح الجماح مردود الشطط ، لاينتج العلم بل هو صديق له فقط ، يبحث فى أسرار الكون ولكن مع احترام الحقائق الثابتة » (٢)

وهل هنالك حقائق ثابتة فى الإسلام غير الوحى الالهى ؟

ألم أقل قبل قليل أن أصحاب الأزمة ينظرون إلى الوحى الإلهى والجهد البشرى نظرة واحدة ؟

إذن كيف يمكن أن يكونوا مسلمين وهم يرفضون حتى الوحى الإلهى ، ويريدون هدمه وإبعاده عن المنهجية والفكر والحياة العملية .

ـ إن المثقفين عندنا لانجرافهم وراء « الأيديولوجيات » الغربية المتنوعة التى سيطرت على تفكيرهم ووجهت ثقافتهم ، يفتقدون الحس العلمى والتحرى عن الحقيقة .

---

(١) السابق ص ٣٥ وما بعدها .

مثال ذلك نظرية دارون التي قدم العلم الحديث بفروعه المتنوعة أدلة قاطعة على استحالتها بالشكل الذى تخيلها دارون، والتي بنيت عليها الثقافة الغربية الحديثة فى نظرتها إلى الكون والحياة والإنسان، فانهيارها يؤدى إلى انهيارها وإعادة النظر فى جوانب كثيرة منها.

ومع ذلك فان أصحاب الأزمة عندنا مازالوا يعدون تلك النظريات التي بنيت على نظرية دارون، حقائق ومسلمات لايمكن أن تناقش فى زعمهم وهم مصرون على انغلاقهم الفكرى، يفكرون كما كان يفكر مثقفو وأدباء الغرب فى القرن التاسع عشر، يبدأون من حيث انتهى الغربيون، لأنهم مقلدون لايمتلكون عقلية الاختيار الحر والمواجهة والمراجعة والرفض.

– على الرغم من انهيار مبدأ التفسير الأحادى للتاريخ وحركة الحضارة وسلوك الإنسان فى الدراسات الغربية الحديثة باعتبار أن الإنسان كائن اجتماعى معقد، تخضع فى صيرورته الوجودية إلى عوامل متنوعة، فان مثقفينا مازالوا من حيث العموم يركضون وراء التفسير الأحادى لقضية الإنسان سواء أكان تفسيراً اقتصاديا أو جنسيا أو اجتماعيا أو دينيا، ويرفضون ما تنبه إليه كثير من مفكرى الغرب إلى شمولية الكيان الإنسانى وخطأ محاولة تجزئته، ثم دراسة كل جزء بمعزل عن الآخر. (١)

---

(١) مثال ذلك (الانسان ذلك المجهول) للدكتور الكسى كارل و (سقوط الحضارة) لشبنغلر و « اللاانتمى وسقوط الحضارة » لكولن ولسن و « البديل وما يعد به الاسلام » لجارودى.

ولقد أدت هذه النظرة العنيفة الخاطئة فى دراسات مثقفينا إلى أخطاء منهجية شنيعة فى الدراسات الإنسانية .

— إن القلق والمأساة فى حياتنا التى عانى ويعانى منها المثقفون ثم تقدم الغرب الهائل والتغيير المادى الكبير فى العالم وعدم الصبر على الانتظار والتفكير وإيجاد الحلول المناسبة ، دفع مثقفينا إلى اختيار أسهل الأمور ، وهو نقل وترجمة الحلول الغربية الجاهزة لاسيما وأن الحلول الإسلامية ، لم تكن موجودة فى صورة مذهبية واقعية حديثة .

ولما بدأت استجابة عقلاء ومفكرى الإسلام للتحدى الحضارى الغربى وفكروا فى تقديم المذهبية الإسلامية فى أسلوبها المعاصر ومن خلال مشاكل الحياة المعاصرة وهمومها ، وقطعوا فى ذلك مرحلة لابأس بها استعادة لأصالة الأمة وتوضيحا لرؤيتها ، وتحديدا لشخصيتها الحضارية ، رفض أصحاب الأزمة من المثقفين الذين تربوا على موائد الثقافة الغربية ، ذلك الجهد رفضا قاطعا مع توجيه الإرهاب الفكرى والسخرية وهز الأكتاف ، لابل حاربوه بحجة « السلفية » وزيفوا حوله الحقائق ونسبوا إلى الإسلاميين أنهم يرون الحاضر فقط من خلال الماضى ، ثم يرفضون الحاضر الجديد وينفون المستقبل فى أسلوب تهريجى ، لاعلمى ولامنهجى ، دون الاعتماد على دراسة ميدانية واسعة لما كتبه الإسلاميون ، ودون إدلاء دلوهم هم فى الموضوع ، بل لجأوا إلى الرفض القاطع

قطعوا مع الإسلاميين جسور الحوار والتواصل ، بل تعدوا ذلك إلى الإسلام نفسه ، إنكارا أو تعطيلا أو حصرا لمهمته فى دائرة روحية ضيقة(١) .

وكان الواجب التاريخى يفرض عليهم أن يدرسوا الإسلام من جديد ، دراسة عصرية واعية مسؤولة فى إطار أصوله وقواعده بعيداً عن اجتهادات القرون ، ويضعوا إمكاناتهم الثقافية فى إغناء الفكر الإسلامى الحديث الذى هو مسؤولية المسلمين جميعاً .

إن المثقفين الأذكياء من أصحاب الأزمة الذين يشعرون بحتمية التغيير والانحياز الكامل إلى المستعبدين يستطيعون أن يحولوا ذكاءهم ودراساتهم إلى استنباط ما هم بصدده من أعماق الوحى الإلهى .

إن الوحى الإلهى ليس تجسيداً وتشخيصاً يتحرك هو بنفسه ، إنما الإنسان المسلم هو الذى يستطيع أن يحول الوحى الإلهى إلى تغيير وواقع .

---

(١) انظر : « النزعات المادية فى الفلسفة الاسلامية » للدكتور حسين مروة / المقدمة ، حيث عرض آراء حول السلفية . و « العرب والفكر التاريخى » لعبد الله العروى ص ٥٢ ، ٥٣ و « نحن والتراث » للدكتور محمد عابد الجابرى ط ٢ المغرب ص ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٦ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ١٤٥ ، ١٤٦ . و « النقد المزدوج » للدكتور عبد الكبير الخطيبى ص ١٠ ط ١ بيروت و « دراسات اسلامية » للدكتور حسن حنفى ص ٤٤ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٩٣ .

إن ما يريده المثقفون من إعطاء دور كامل للإنسان وتحريك طاقاته العقلية والانتقال من الزمن الميت إلى الزمن المتحرك ، من المؤكد أنهم يستطيعون بحثه والوصول إلى حلول واقعية له داخل الإسلام وضوابطه المستندة إلى الوحي الإلهي .

إن هؤلاء يتهمون العلماء بالجمود ، ويتحدثون كثيراً عن رفض عقلية تقديس السابقين. ولكنهم يكتفون بذلك، ولايفتحون حوارا بين أنفسهم وبين إسلامهم كي يتقدموا إلى قيادة الجيل الجديد نحو التغيير والتجديد وكسر القيود .

الباب الثالث

العلاج

الفصل الأول

اعادة النظر فى العلوم الاسلامية

فى عالم الصحة ، لا يمكن لأى طبيب أن يقضى على المرض الذى يعالجه إلا إذا كان قد شخص المرض بدقة وبين أسبابه ومظاهره بوضوح .

هذه قضية بديهية لا تحتاج إلى برهان ولا يختلف فيها عاقلان . وإذا كنا فى الفصول السابقة قد شخصنا مرض الأزمة الثقافية فى عصرنا تجاه الإسلام وحددنا أسبابه ومقدماته ، فاذن لابد منطقيا أن نبدأ بالتفكير فى أمر خطير آخر ، وهو كيفية مواجهة هذه الأزمة ، بالعودة إلى أسبابها ، من أجل التخطيط للقضاء عليها . بلا تردد أو بلا إنتظار ولا أنصاف حلول .

إن الشعور بوجود الأزمة وتحديدها ، ثم الاكتفاء بإصدار التأوهات والحسرات والحوقلات عليها ، لم يزد الأزمة منذ قرن كامل إلا رسوخا فى الأذهان وانتشاراً فى الواقع .

لم تفد صيحات التكفير ، لأن أصحاب الأزمة يعدون الكفر والإلحاد عقلنة ولأنهم يعدون مصدرى تلك الفتاوى أعداء التقدم والعقل .

ولم تفد صرخات التفسيق والتفجير ، لأن هؤلاء الشاردين الذين طمست الأزمة على قلوبهم يتفاخرون بحياة الفسق والفجور وينظرون إليها مظهرا من مظاهر الحياة الحديثة القائمة على أساس الانطلاق والتحرر .

إذن العمل الجاد أن ننظر فى الأسباب ، ونحاول القضاء عليها من خلال منهج علمى إسلامى تربوى ومن خلال تقديم المذهبية الإسلامية فى الكون والحياة والإنسان ، بلا ربطها القهرى بالتاريخ أو بما يسمى بالتراث .

أى بتطهيرها من كل ما علق بها فى التاريخ والتراث من وثات ومن عوامل الإعاقة والتشويه والانحراف والتسخير .

أى أننا نحتاج اليوم أن ننتشل المذهبية الإسلامية الكونية الثابتة الواضحة القاطعة فى القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة من أوزار الزمن الماضى ، حتى تتحرك حياتنا فى العصر الحاضر إلى الأمام وننشغل بالحاضر والمستقبل ، فلا نرجع إلى الوراء إلى التراث الإنسانى بكل أبعاده ، دون تفريق بين بعاده المشرقة ، وأبعاده الباهتة .

لأننا إن فعلنا ذلك فقد حكمنا على أنفسنا بالموت ، عند ذلك يتقدم علينا أصحاب الأزمة فنتأخر عنهم . وبذلك نكون قد أبقينا على الأزمة ، ولم ننقذ أنفسنا ولا أصحاب الأزمة الذين يعيشون إلى اليوم فى عالم الجهل والغفلة والعقد .

وسينبرى قائل هنا فيسألنا ، ولكنك بهذا الكلام تنكر دور الفكر الإسلامى الحديث الذى أوجد الوعى والوضوح ، ونقل الناس من حال إلى حال ،وقضى على كثير من مظاهر الأزمة التى نتحدث عنها .

نقول : نعم . إن الفكر الإسلامى الحديث قد فعل كثيراً مما تقول ، ولكن هذا الفكر لم يزل فى البداية ، ولم يزل يعانى من عدم الوضوح ، ولم يستطع إلى الآن أن يقوم بدوره التاريخى العصرى . ولم يلحق الهزيمة النهائية بأسباب الأزمة ومظاهرها ، ولم يضع العالم الإسلامى بعد على خط تغييرى إسلامى واضح كامل شامل .

ذلك لأن عوامل الردة والنكوص فى الأمة والمخططات المعادية الهائلة المعوقة من الشدة والتركيز بحيث إن تلك المحاولات المخلصة الجادة لم تعد تكفى للمواجهة . فلابد من العمل السريع والجهد العظيم والإخلاص المتفانى والشجاعة النادرة التى تستطيع أن تعالج الأزمة بقوة ومنطقية ووضوح حتى تعود أمتنا إلى حظيرة الإسلام

وينفض أصحاب الأزمة غبار الجهل والعقد والغموض والتشويه عن أنفسهم، فيعودوا بدورهم إلى مواقعهم الإسلامية الرفيعة الذين هم جديرون بحملها بما وهبهم الله من التفكير والذكاء ، إن أخلصوا لدينهم وانتشلوا أنفسهم من أوزار المذهبيات الجاهلية والثقافات المادية والمشوهة .

ولكن كيف يتم هذا الانتشال التاريخي المعاصر للفكر الإسلامي الحديث ، لكي يقوم هو بدوره فى انتشال الآخرين من أصحاب الأزمة وغيرهم .

يتم ذلك برسم خطوط « المذهبية الإسلامية » وهي كليات الإسلام فى الوجود كله . واستنباطها من القرآن والسنة بعقلية معاصرة ، استجابة لظروف حديثة مستجدة، ولايعني هذا أن الوحي الإلهي يتغير ، وإنما الذى يتغير نحن فى فهمنا للوحي الإلهي وتحويله من التجريد إلى الحركة والحياة .

والوحي الإلهي كمال مطلق ، كل عصر يأخذ منه بما ينسجم مع ظروفه المستجدة دون أن ينضب معينه أو تحرف كلماته ، لوجود الضوابط الأصولية اللغوية والنقلية والعقلية التى تضبط فكر الإنسان المسلم وتحول بينه وبين الشرود والتيه والتمرد .

ونعني بالعقلية المعاصرة عدم تكرار النماذج العقلية التى ترتبط بالعصور السابقة ، لأن العصور العقلية والحضارية لاتتكرر فى

مجملها ، إذ تكرارها بالصيغ نفسها يعنى إرجاع الزمن الحاضر إلى الماضى وإيقاف الحياة وعدم القدرة على الاختيار واتخاذ القرار .

والعصور السابقة من حيث وعاء المجهودات البشرية ، ليست حاكمة على المسلمين فى أى عصر تال .

ليس معنى ذلك أن نطرح تلك العصور من حياتنا ، لأنها مخزن كبير من المعارف والتجارب الإنسانية ، نستفيد منها ونستنير بها ونأخذ منها ما يساعدنا على دفع حركة التغيير فى حياتنا إلى الأمام أكثر فأكثر .

وتاريخ حضارتنا الإسلامية متواصل غير منقطع ، لا ماضى فيه ولا حاضر بمعنى الحواجز الزمنية الفاصلة ، وإنما فيه الحق والباطل والخطأ والصواب ، فلا نلتفت إلى النظرية الغربية الخاطئة القائمة على أساس « الرجعية والتقدمية » بمفاهيم المادية . فالحق عندنا حق ولو كان قديما والباطل باطل ولو كان حديثا .

وفى سبيل دمج الوحى الإلهى بالحياة وتحويله إلى حركة متجددة ، لابد لنا أولا أن نعيد النظر فى العلوم الإسلامية وتدريسها .

علم التوحيد :

لابد أن يتخلص التوحيد من رواسب النظريات الكلامية القديمة التى كانت مرتبطة بصراعات العصور التى ظهرت فيها ، والتى لم تعد تستطيع تحريك الحياة فى عصرنا ، لأنها لاتعبر عن

واقعها، والتي تحولت – لاسيما فى القرون الأخيرة – إلى قوالب جاهزة فى تراكيب عويصة غريبة وأحاج غامضة غير مفهومة .

ومعظم موضوعات علم الكلام لم تكن من أهداف الوحى الإلهى ، وانما نتجت من المشاكل اللاهوتية التى أثارها اليهود والنصارى والبراهمة وأرباب الملل والنحل الأخرى . واضطر المفكرون المسلمون أن يخوضوا فيها ، لإسكات الخصم والقضاء على شبهاته وشغبه فى إطار مفاهيم الزمن الذى ظهر فيه .

وكان من نتائج ذلك ، أن المسلمين شغلوا بقضايا عالم الغيب فى حين أن الوحى الإلهى جاء ليوجههم إلى عالم الشهادة ، (عالم المادة) وتسخيرها والقيام باداء الخلافة فيها .

ومن جهة أخرى فان غاية علم التوحيد قد طمست من حيث إنه علم إيمان وعبودية لله تعالى وتحرير للإنسان من الخوف وتوحيد وجهته وغايته ، وتحريكه نحو بناء الحياة من خلال توازن رائع وحركة مستمرة ونظرة دائمة إلى المستقبل ، حتى آخر لحظة من حياته بحيث لو قامت القيامة ونفخ فى الصور واختل نظام الوجود وبيده فسيلة ، فلابد أن يزرعها كما ورد فى حديث لرسول الله ﷺ .

لقد حررت عقيدة التوحيد القرآنى الإنسان من عبادة نفسه وعبادة غيره وعبادة مظاهر الحياة المادية وأوثانها المتعددة من

المال والمتاع والمصالح ، ووضعت الإنسان على طريق الوضوح فى الحياة وأنقذته من التيه وحددت مركزه تحديداً دقيقاً ، فغدا يشعر بانه جزء من هذا الكون الذى يخضع للعناية الإلهية المباشرة وبذلك انتهت أزمته الحضارية التى أردته إلى الحضيض ، تلك الأزمة التى أوجدتها المذهبيات الجاهلية المشركة قبل الإسلام .

ومن المؤسف أننا مازلنا فى جامعاتنا الإسلامية ومدارسنا الملحقة بالمساجد ندرس علم الكلام بكل حدوده وأبعاده ومشكلاته ونسحب طلبتنا معه إلى القرون العباسية ، لنوقفهم وجها لوجه أمام صراعات المذاهب الكلامية المتصارعة ، لتبقى الميادين والمساحات الثقافية الأخرى فى حياة المسلمين اليوم خالية أمام المذاهب المادية الحديثة ، تضرب فى الفراغ وتسيطر على عقلية الأجيال المثقفة وتحدث الأزمة المعقدة تجاه الإسلام .

على أن علم الكلام بمنطقة القديم ومادته المعرفية الغربية لم تعد تستطيع أن تصوغ الإنسان المسلم فى عقيدته وسلوكه . لأنه فقد الصلة بالحياة الحاضرة تماما ، فى حين وفق فى هذا المجال من حملوا عقيدة التوحيد القرآنى ، كل حسب ظروفه وحوله إلى حياة وحركة ومنهج تغيير .

فمحمد بن عبدالوهاب فى الجزيرة ومحمد إقبال فى الهند ومحمد على السنوسى فى شمالى إفريقية وسعيد النورسى فى تركيا وعبدالحميد

بن باديس فى الجزائر وحسن البنا فى مصر علامات مشرقة ورائدة على طريق البناء الإسلامى الجديد الذى يحتاج إلى مزيد من الفكر والتخطيط والتركيز والبلورة والممارسة ، فى تجدد دائم لايعرف التوقف ، ولايكتفى المفكرون والعلماء والدعاة بما بدأ به هؤلاء ، إنما عليهم أن يطوروه ، حتى تعود عقيدة التوحيد وعاء كاملا للأمة من جديد ، تحركها وتنقذها من السقوط والتسخير وتشعرها بإنسانيتها حتى تنقذ نفسها من الظالمين الطغاة فى الداخل والخارج وتطرح عنها سلبيات الماضى كلها وتصنع تاريخها من جديد بإرادة المؤمن القوية التى لاتعرف التواكل والجبر الذى فرضه على تاريخه اللاهوت الغريب ، والسياسة المستغلة .

علم التفسير :

مازالت الغرائب القديمة فى تفسير كتاب الله تعالى ، المعتمدة على التحقيقات اللفظية والنكت البلاغية والجزئيات الكلامية والتجزئة الفاصلة بين الآيات هى المنهج المعمول به فى مناهج الجامعات الإسلامية وأقسام اللغة العربية فيها ، ذلك المنهج الذى حال فى القرون الأخيرة بين المسلمين وبين كتاب ربهم وحرمهم من أن ينفعلوا به ويتحمسوا له ، ويتحركوا إلى التغيير والبناء فى ضوئه . لأن ذلك المنهج القشرى حرمهم من استكشاف كنوزه ومكنونه وأبعدهم عن مذهبيته الكاملة الشاملة عن الوجود كله .

وهذا يدفعنا إلى أن ندعو إلى تبنى التفسير الموضوعى للقرآن الكريم من حيث هومنهج العصر ، حتى نضع المسلمين فى مواجهة القرآن الكريم ، كى يدركوا سننه الاجتماعية ويستنبطوا مثات الوحدات الموضوعية المترابطة بين آياته والتى توضح لهم حركة الوجود والحياة وكيفية مواجهتها وعوامل التقدم والنكوص فيها فى شمولية كونية متناسقة ، لا تحدها حدود ، لأنها لاترتبط بزمن ما ، فهو خاتم وخالد إلى يوم الدين .

ولابد للعقل المسلم اليوم أن يقف أمام القرآن طويلا ليربطه بحياته وواقعه ، ويكون ذلك قانونا عاما بديهيا فى مواجهة القرآن الكريم .

ولابد له أن يؤمن بأن القرآن الكريم هو الكون المقروء ، فكلما ظهرت له أسرار الكون المنظور ، ظهرت له أسرار وحقائق الكون المقروء .

علم أصول الفقه :

لم يظهر هذا العلم إلا استجابة واقعية لحركة التطور التى بدأت تتخذ أبعادها ومحاورها ابتداء من القرن الثانى الهجرى بعد أن جابه المجتمع الإسلامى المجتمعات الأخرى بأعرافها وتقاليدها ومنطلقاتها الحضارية .

لو لم يظهر هذا العلم ، لفقد المحور والتبست على الناس المفاهيم واضطربت الرؤية وعاد الناس إلى التشريع لأنفسهم حسب مصالحهم الضيقة وفى ضوء هواهم ، ولما استفادوا من رحمة الله بهم فى بعث الأنبياء والمرسلين ، ولاسيما بعثة الرسول الأعظم محمد ﷺ

إذن فهذا العلم العظيم هو مفتاح لإدراك مقاصد الشريعة فى عالم الشهادة وتتبع حكمها وأغراضها خلف الألفاظ وبين ثنايا التراكيب . وهو بجانب ذلك علم ضوابط حركة المجتمع والحضارة كى لاتنحرف وتشرد فتتيه .

ولقد كان هذا العلم مندمجا مع الفقه اندماجا عضويا لاينفصل عنه ، لأنه منطلقه وقاعدته ووعاؤه .

فلما توقفت الحياة وانتهت حركة الحضارة وأخذت طريقها نحو الانحدار التدريجى ، توقف الفكر الفقهى عن متابعة الحياة ورفد الحضارة ، وانفصل علم أصول الفقه عن فروعه ، فتحول إلى موضوع مستقل مقطوع الصلة بالحياة . وبعد عصر الحركة والتطوير دخل إلى عصر التوقف والجمود . وبعد أن كانت أساليب عرضه واقعية مشرقة مفصلة ، تحولت إلى الايجاز والغموض والإغلاق مع الركة والبعد عن الفصاحة .

وعلى الرغم من أن هذا العلم بدأ يتحرك مع حركة الفقه فى القرن الحاضر وظهرت كتب جامعية واضحة عرضت مباحثه

وسهلت أمام الطلبة طرائق فهمه إلا أنها لم تتجاوز التلخيص والعرض الواضح ، وهكذا بقى هذا العلم بلا تطوير ولا مراجعة ولا إضافة ، فى حين أن الذى يدرس هذا العلم دراسة معمقة ويعيش فى عصرنا الحاضر ويرى التغيير الكبير الذى حدث فى الحياة ويفهم جذوره ومنطلقه ومستقبله ، لابد أن يشعر خطورة بقاء هذا العلم على جموده السابق ، ولاسيما أن مصادره العقلية الاجتماعية وسعت مباحثها أصلا لمتابعة التطور فى إطار أصول وضوابط هذا العلم نفسه ، لأن تطوير كل علم لابد أن ينطلق من ذاته لتسلسل حلقاته ، فلا يفقد روحه بإدخال العناصر الغريبة من ثقافات تطورت وأخذت مداها فى إطار حضارات أخرى غير حضارة الإسلام .

إن فهم هذا العلم على حقيقته وإدراك أغراضه ومقاصده والاهتمام بتطويره مادة وأسلوبا ، وتدريسه فى المستويات الثقافية كافة ، فى العالم الإسلامى ، سيشكل حلقة من حلقات ضبط الحياة وإعادة التوازن إلى الفكر الإسلامى فى العصر الحديث .

ذلك لأن أزمتنا الثقافية الحاضرة كانت نتيجة طبيعية لأمور كثيرة ، منها عدم الاستفادة المدركة الذكية الهاضمة لهذا العلم من لدن الإسلاميين وغيرهم من المسلمين ؛ الإسلاميين بالجمود فيه وحفظه كما وصل إليهم والمسلمين بالجهل المركب فيه .

علم التصوف :

ذكرنا فيما مضى أن التصوف كان تربية للروح وتجسيدا للقيم الإسلامية الرفيعة فيه ، فإذا به يتحول إلى طغيان للنفس الأمارة بالسوء ، عندما خرج من إطار كتاب الله وسنة رسوله ﷺ واتبع الفلسفات الإشراقية والحلولية الأجنبية، فحمل معه معاول الانحراف والهدم والتخدير كلها فحفر فى جسد الأمة أخاديد عميقة نحن اليوم بأشد الحاجة إلى ملئها وتسويتها حتى يعود التوازن إلى كيان المسلم فيواجه الحياة مواجهة متسقة ، عامة شاملة ، بلا تكتلات فكرية ضيقة أو طائفية مفرقة أو مذهبية مميتة .

– إن المتصوفة مازالوا بعيدين عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺوفهم عقائدهما وإدراك سننهما،أكره شئ إلى التيار العام فيهم العلوم الإسلامية ، بل هم لايدرسونها ولايستفيدون من كنوزها .

– وهم مازالوا يسلخون من كيان الإنسان بناءه العقلى وتوجهه السببى المنطقى فى فهم الحياة ، ويزرعون مكانه الخرافة ويحشونه بالسلبية واللا سببية ونفى الغائية من الوجود كله ، ويفرضون على أنفسهم وعلى غيرهم حياة الاستسلام والجبر وعدم الحركة نحو التغيير والاشتراك فى البناء الإسلامى الجديد .

– ومازالت الخلفية الفكرية التى انحدرت إليهم تعتمد على الفلسفات الوثنية وأعراف وتقاليد الأمم والشعوب غير الإسلامية

تلك التى حاربها أهل الله من العلماء الربانيين الصادقين من أمثال السيد أحمد الرفاعى الذى خصص كتابه النفيس « البرهان المؤيد » لمحاربة هذه الاتجاهات الفكرية الضالة التى صاغت كيان المتصوفة — حاشا المتبعين القليلين منهم لسنة رسول الله فى القرون الأخيرة — صياغة غير إسلامية تركت آثارها المدمرة فى أوضاع المسلمين اليوم .

— إنه من المأساة أن يستمر اليوم النظام الطرقى فى طريقه الطاغوتى الخرافى اللا عقلى المستغل . ويكون عقبة فى طريق إحياء الثقافة الإسلامية الحقة ، بل محاربتها جنبا إلى جنب مع الحكام العلمانيين والأحزاب والجماعات التى تحمل سموم الفلسفات المادية والإباحية إلى العالم الإسلامى .

إننى لا أجانب الإنصاف إن قلت أن الأنظمة العلمانية المنتشرة فى طول بلاد الإسلام وعرضها تعتمد على هؤلاء فى تزييف حقائق الإسلام وتخدير المسلمين ومحاربة دعاته الصادقين وعلمائه المخلصين ، ويغدقون على طواغيتهم من رؤسائهم وشيوخ طرقهم الأموال الطائلة ، وقد يربطونهم بأجهزتهم الإدارية والقمعية للقيام بأدوار فى غاية البعد عن الإسلام ، تحول دون انتشار الوعى الإسلامى الحقيقى ودون المطالبة الجماعية لاستئناف الحياة الإسلامية وتمكين شريعة الله من البلاد والعباد .

إن معظم أتباع هؤلاء فى العالم الإسلامى أميون وجهلة بأصول الإسلام، أسلموا قيادهم إلى شيوخهم ليقودوهم إلى الوقوف مع الأعداء، ويحفروا معهم من حيث يعلمون أو لايعلمون قبوراً جماعية للإسلام وأهله.

إن نشر الوعى الإسلامى الصحيح بين المسلمين على المستويات كافة وتعريفهم بما يريد منهم الإسلام العظيم من صدق وإخلاص لله ورسوله ومساندة أوليائه ومعاداة أعدائه، عبر الحوار والتفاهم وعدم تحويل المعركة فى المجتمع الإسلامى إلى معركة ذات وجه واحد، هو الأسلوب الذى يؤدى فى المستقبل إلى القضاء على الأمية والعقلية الخرافية الاستسلامية، واستشعار الشعور بالذات المؤمنة الواعية وعدم قبول التسخير إلا لله تعالى ورسوله ﷺ.

إن بعض المتصوفة من المخلصين المتنورين الذين يعدون جزءا لايتجزأ من حركة الإسلام فى كل عصر الشاعرة بالمآسى والأزمات التى لحقت بالمسلمين فكراً وممارسة يقع عليهم واجب عظيم فى هذا المجال، إذ يقدرون على مالا يقدر عليه غيرهم. فأهل مكة أدرى بشعابها، ولا ينبغى أن يركزوا على الاتجاه الصوفى ذى الوجه الواحد (نظام الطرقية والدروشة) وإنما لابد أن يغيروا الأسلوب ويتقدموا إلى البناء والتغيير والمستقبل من خلال دعوة الإسلام العامة الشاملة التى جزأتها هذه المصطلحات الحارثة فى حياة الأمة الإسلامية، لاسيما فى عصرنا الحاضر الذى لابد أن

تؤدى فيه خصوصية المصطلح (الصوفى ، السلفى ...) إلى الانزواء والتقوقع واتخاذ المواقف فى ضوء ذلك ، مما يلحق بالحركة الإسلامية الحديثة فى بلاد الإسلام أضرارا عظيمة، يلج منها أعداء الإسلام لتمزيق الصف الإسلامى الواحد .

إن المثقفين الإسلاميين الذين يهتمون بتربية الروح وتطهير النفس يستطيعون أن يهتموا بذلك داخل الصف الإسلامى الواحد ، كى يعيدوا إليه دائما التوازن إذا أصاب ذلك الصف أو جزءا منه هزال فى الروح وضعف فى التربية . عند ذلك تنتفى الحاجة إلى تبنى المصطلح التاريخى سواء أكان تصوفا أو غيره . وعند ذلك يعود الصف الإسلامى إلى وحدته العامة الشاملة ، كما كان عليه الوضع فى مجتمع صحابة رسول الله ﷺ ، بلا تكتل مصطلحى ولا طائفية ولا مذهبية ضيقة .

الفصل الثانى

اسلمة العلوم الانسانية

تطورت العلوم الإنسانية فى الحضارة الغربية تطوراً هائلا فى الاتجاهات كلها ، وتعمقت فى دراسة الإنسان وعلاقته بالعالم الخارجى واعتمدت التدقيق والملاحظة والاستقراء وحاولت الوصول إلى القوانين الضابطة لحركة الإنسان فى نواحى الحياة .

وبعد أن كانت هذه العلوم تدرس فى إطار الفلسفة ومصطلحاتها انفصلت عنها منذ القرن التاسع عشر ، فاستقل كل علم بمادته المعرفية مصطلحا وموضوعا ، فظهرت الفلسفات الواقعية بفروعها وعلم الاجتماع بفروعه وعلم الاقتصاد بفروعه وعلم النفس بفروعه وعلم التربية بفروعه وعلم السياسة بفروعه وهكذا .

والدارس لتطوير هذه العلوم فى قرون النهضة الأخيرة يعلم جيداً أن هذه العلوم تطورت فى ظل ردود الفعل التاريخية على الكنيسة ومبادئها وإلهها ، أى أن هذا التطور جرى فى ظل الاتجاه العقلانى العلمانى الصارم ، ثم حدث أمر خطير فى بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر : عندما نشر داروين كتابه « أصل الأنواع » سنة ١٩٥٩ م ، وذهب إلى أن الإنسان حيوان كسائر الحيوانات تطور عبر مسيرة تاريخية طويلة نتيجة للمصادفة وقانون الانتخاب الطبيعى .

كان من الممكن أن تأخذ هذه النظرية مكانها فى عالم العلم المادى كسائر النظريات ، ولكن الصراع الدائر بين الكنيسة والعلم فى التاريخ الأوربى أعطى هذه النظرية مداها الأيديولوجى فأدخلت فى صلب هذا الصراع وقلبت إلى حقيقة علمية لاتناقش على الرغم من أن داروين لم يجزم بها ولم يقدمها من حيث هى حقيقة علمية .

هنا حدثت المأساة التاريخية الكبرى فى العلوم الإنسانية ، حيث بدأت هذه العلوم تعامل الإنسان من حيث هو حيوان ، الأمر الذى تولد منه اتجاه خطير وهو زحزحته من واقعه الإنسانى وفرض نظرية التطور عليه ، ومن هنا حدثت ثغرات كبيرة فى هذه العلوم جزأت الإنسان إلى أجزاء مبعثرة وقدمتها على أسس الحيوانية البحتة .

ولما بدأت هذه العلوم بأوضاعها المادية الحيوانية تنتقل إلى العالم الإسلامى عبر قنوات تكلمنا عن أسبابها ، نقلت الجو العلمانى العقلانى الحيوانى إلى الثقافة فى المجتمعات الإسلامية ، لأنها درست حقائق لامناص منها ، ظهر تأثيرها الحاسم فى إحداث الأزمة الثقافية بين المثقفين المسلمين . بحيث أدى إلى ردود فعل عنيفة فى بعض الأوساط الفكرية الإسلامية ،وعدت هذه العلوم علوما مادية مناقضة لأصول الإسلام ، لابد أن تحارب .

ولما لم تستطع ردود الفعل الضعيفة تلك أن تمنع انتشار تلك العلوم الإنسانية فى العالم الإسلامى ، تجذرت بوضعها المادى أكثر فأكثر على المستويات الثقافية كلها وظلت تدرس فى ظل تلك الأوضاع إلى أيامنا الحاضرة بقوة وانسيابية كبيرة .

غير أننا لابد لنا أن نتنبه منذ الآن إلى الخطأ الكبير الذى وقع فى مواجهة ومعالجة تلك العلوم ، فندعو إلى تغيير النظرة تجاهها ،

ذلك لأن الإنسان هو هو فى المجتمعات كلها ، فى تكوينه وفى دوافعه ومشكلاته ، وتلك العلوم تعالج الإنسان من حيث هو ، وتنظم مشكلاته فى الحياة ، غير أن فى تلك المعالجة ثغرتين .

أولاهما : أن تلك العلوم قد عولجت فى ظل أوضاع «إيديولوجية» معروفة أنتجها صراع التطور التاريخى للمجتمعات الأوربية بين الكنيسة والعقل العلمانى الحديث .

ثانيتهما : أن تلك العلوم قد وجهت توجيها « أيديولوجيا » خاطئا بعد ظهور نظرية « دارون » التى عدت الإنسان حيوانا كسائر الحيوانات .

إذن فمن الخطأ العظيم رفض تلك العلوم وعدم دراستها والاستفادة منها ، وإنما لابد من القيام بعملية تاريخية فاصلة فى العالم الإسلامى ، وهى إيقاف تلك العلوم على أرجلها وفحص مادتها المعرفية وتدقيقها بعد التحرر من الاتجاهات الايديولوجية التى ولدت فيها الثغرات الكبيرة ، ثم عرضها على الوحى الإلهى فى إطار أصول فهمه وقواعده ، لا على التراث الفكرى الإسلامى ، من مبدأ أننا اسلاميا مسؤولون فى الخضوع إلى الوحى الإلهى لا لفكر المسلمين المرتبط بمراحله التاريخية . ثم تأتى بعد ذلك عملية الاختيار الحر ، مراعين فيه المرحلة التاريخية التى نمر بها فى عصرنا الحاضر ،

تمهيدا للدخول فى طور الإبداع فى تلك العلوم فى ضوء المستجدات التى يأتى بها المستقبل .

ولقد بدأت والحمد لله تعالى ، هذه العملية فى الجامعات والأوساط الثقافية الإسلامية ، إذ ظهرت فكرة أسلمة تلك العلوم الإنسانية لا رفضها ، كل حسب اختصاصه ، سواء أكان فى الفلسفة أم فى الاجتماع أم فى الاقتصاد أم فى السياسة أم فى علم النفس والتربية .

إن الوصول إلى المعارف الكونيةواكتشاف أسرارها وأبعادها عمل يتصل بعالم الشهادة ، والإسلام حرر العقل الإنسانى فيها شريطه ألا يتبع هواه ، فيخالف الوحى الإلهى القاطع ، لأن مخالفته تعنى أن هنالك خطأ فى الإدراك ونقصا فى المعالجة ، فلابد من الوقوف عند الوحى الإلهى ومحاولة تصحيح الخطأ وتبديل أسلوب المعالجة واكتشاف الثغرة .

إن أسلمة العلوم الإنسانية ، هى خطوة مهمة كفيلة بالقضاء على جانب كبير من جوانب أزمة المثقفين ، لأنهم عند ذلك لايحتاجون إلى الاستغناء عن المادة المعرفية فى تلك العلوم وإنما يحتاجون فقط إلى تبديل المذهبيات الغربية بمذهبيتهم الإسلامية التى لاينكرها ــ نظريا ــ معظم مثقفى العالم الإسلامى .

على أن محاولة أسلمة العلوم الإنسانية إلى الآن ، تتكفل بها

جهود أفراد هنا وهناك ، فلابد من توسيع الدائرة وتبنيها من قبل الأوساط الرسمية فى البلاد الإسلامية فى ضوء تخطيط جماعى منظم من أجل الوصول إلى التغيير الشامل ، ودفع التنمية فى البلاد الإسلامية فى مسارها الصحيح وقيام حضارة إسلامية حقيقية متوازنة تقودها مذهبية الإسلام فى الوجود وتتخلص من عقد المذهبيات المادية الغربية الحديثة وثغراتها .

ومن المؤكد أن هذا التحول الحضارى المنشود ، سيغير من وجهة تلك العلوم حتى فى العالم الغربى ، لأن عقلاءهم ومفكريهم يشعرون تماما بتلك العقد والثغرات ، ولكن ليس عندهم الكنز الذى عند المسلمين ، وهو دين الإسلام الحق ، ولو درس مفكرو الغرب الإسلام فى حقائقه ، إذن لاستفادوا منه فى إصلاح شؤون حضارتهم .

فما بالنا نحن المسلمين لانفعل ذلك ، كى ننقذ أنفسنا وننقذ البشرية من الانحراف والتلكؤ الحضارى الكبير الذى أصاب حياته وحياة غيره فأورده موارد الطغيان والشرور ، فقاد الإنسانية إلى الحياة الحيوانية الشائنة التى أبعدتها من فطرتها وكرامتها من حيث هو مخلوق متميز ، كرمه الله تعالى وفضله على كثير ممن خلق .

الفصل الثالث

واقع المسلمين

ذكرنا أن واقع المسلمين حكاما وعلماء وعامة كان عبر القرون الأخيرة واقعا بعيداً عن الإسلام ، فالحكام بتسلطهم وقهرهم لمن يليهم والعلماء – إلا المخلصين منهم – بجهلهم وجمودهم وركونهم إلى الدنيا والظالمين ، والعامة بأميتهم وعدم الشعور بانسانيتهم كانوا من أهم أسباب إحداث أزمة الجيل المثقف الجديد تجاه الإسلام .

إذن كيف يمكن أن تعود المياه إلى مجاريها ؟ كيف يمكن أن نصحح تاريخنا فى حاضرنا حتى لاتعود المآسى فى حياتنا الحاضرة ؟

كيف يمكن أن يعود الحاكم واحدا من المسلمين ، له ما لهم وعليه ما عليهم ؟ كيف يمكن أن ينتهى القهر والطغيان من بلاد الإسلام ؟ كيف يمكن أن يعود العلماء إلى إخلاصهم لله ورسوله ؟ وحمل أمانة الإسلام بجدارة وإيمان ؟ كيف يمكن أن ينتهى ركون معظمهم إلى الدنيا ؟ كيف يمكن أن تنتقل الأمة من الأمية إلى الإدراك ؟ ومن الذل إلى العز ؟ كيف يمكن أن نتدخل لايقاف الطغيان كلما بدأت نفوس الحكام تزين أمامهم حياة الاستعلاء والبطش ؟

هل يمكن أن يحدث كل هذا ؟ ويعود المجتمع الإسلامي مجتمعا موحدا ربانيا تعاونيا إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ؟ .

أقول : نعم يمكن ذلك إذا عرف المسلمون كيف يبدأون العلاج ؟

لنرجع إلى تاريخ الجيل الأول ، عندما ربى رسول الله ﷺ العصبة المؤمنة من صحابته الأقربين من المهاجرين الأولين والأنصار الذين اتبعوه بإحسان على التوحيد الخالص والسلوك الرباني والجهاد في سبيل الله وعدم الخشية إلا من الله. في هذا المجتمع الموحد التقي الصالح الذي كانت رؤية كل فرد فيه واضحة وواقعه الحياتي سليما . وكان هنالك انسجام وإدراك ووحدة اجتماعية متراصة . لم يكن بالامكان فرض القهر والظلم ، ولاتجاوز الإسلام . لم يكن بالإمكان يومئذ إلا مجيء أبي بكر وعمر عثمان وعلي وأمثالهم رضي الله عنهم ، لم يكن بالإمكان مجيء المنافقين والمسلمين الضعاف من طلاب الدنيا .

كان ذلك المجتمع واعيا ، بحيث كان مثل عمر عندما يخطب يتصدى له أي فرد في المجتمع ليقول له : اتق الله ياعمر .. لاسمع لك علينا ولا طاعة علينا ياأمير المؤمنين .

لقد وصل ذلك المجتمع إلى درجة من الوعي والشعور بالمسؤولية

الاجتماعية ، بحيث استطاع أعداء الإسلام أن يستغلوا بعض ذوى النوايا الحسنة فيه ، ليرتكبوا جريمتهم التاريخية الكبرى بقتل عثمان على المصحف ، وليس هنالك من يدافع عنه ، ويصد الخائنين والمغفلين من حول بيته .

ثم كثر الخبث وتغلب على الصلاح وانحسر الوعى وطفى الانحراف والنفاق وحب الدنيا ، ففقد المجتمع قاعدته العقيدية التى كانت توحد بين أجزائه ، فعندئذ استطاعت عصبية البيوتات أن تفرض قهرها وتسلطها وتزييفها لحقائق الإسلام على الأمة قرونا مازلنا نعانى منه بوضوح تام . بل لقد أضيف إلى القهر السابق تسلط وقهر الماديين والعلمانيين ، فانتهى الأمر إلى مأساة مخجلة فى تاريخنا ، حيث سقط فيه الإنسان المسلم سقوطا مهينا ، فقد فيه عزته وكرامته والحد الأدنى من آدميته .

إذن العلاج لابد أن يأتى من القاعدة وليس من القمة .

إن البشر غير الواعين وغير المدركين الذين لاتربطهم عقيدة ولا مبدأ موحد ولايشعرون بآدميتهم هم الذين يصنعون الطغاة عبر التاريخ الإنسانى .

إن الطغاة والجبابرة لايولدون من بطون أمهاتهم طغاة وجبابرة .

مرة أخرى فى تاريخنا ، كان من المستحيل أن يرشح أبوسفيان نفسه فى سقيفة بنى ساعدة بعد وفاة رسول الله ﷺ .

ولما سئل ابنه معاوية : لم لا تسير سيرة الخلفاء الراشدين ، قال : ولكن أنتم أيضاً لاتسيرون سيرة الخلفاء الراشدين . أى أنه أراد أن يقول لهم ، لو كنتم مثلهم لما جئت أنا مع وجود المهاجرين الأولين والأنصار المجاهدين .

كانت عصبية الخلفاء الراشدين ، فى المجتمع المؤمن الواعى الشجاع ، فلما تبدل تركيب المجتمع ، تبدلت العصبية إلى عصبية البيوتات وجاء من يمثلها .

إذن فإذا أردنا أن نعيد الأمر إلى نصابه ، لابد أن نخطط لكيفية تربية الأمة من جديد على الإيمان والإسلام حتى تعى نفسها وواقعها وتنطلق من قاعدة عقيدية واحدة ، تؤمن بها وتضحى من أجلها ، لأنها ستضحى عندئذ فى سبيل الله ومن أجل الإبقاء على إنسانيتها وإنقاذها من الإهانة والسحق .

إذا استطعنا أن ننقذ المسلمين فى أى مجتمع من المجتمعات الإسلامية من التمزق الفكرى ووحدناهم على أساس الإسلام وربيناهم عليه وعلى مبادئه بشموليته ، بحيث يصل هذا الوعى الإسلامى إلى آخر فرد فى المجتمع فيدرك أنه عبدالله وليس عبدا لغيره ، استطعنا أن نقضى على القهر والتسلط .

لن تستطيع عصبية البيت الواحد أن تتحرك حينئذ أمام عصبية الأمة كلها للإسلام وكرامة الإنسان .

لن يستطيع أهل الأهواء والمصالح أن يشتروا الذمم لمرض قهرهم وتسلطهم على الناس . لن تظهر الفراعنة والنماردة والأصنام التي تعبد من دون الله سبحانه .

ولنا مثال ولقي اليوم من الأمم الغربية على ذلك .

لماذا لايستطيع أى فرد أن يفرض قهره وتسلطه على الناس جميعاً بين شعوب كالشعب السويدى والشعب الانكليزى والشعب الفرنسى والشعب الأمريكى والشعب الإيطالى وهكذا .

إن القادة التاريخيين الأذكياء الذين أنقذوا شعوبهم من مهالك عظمى لم يستطيعوا أن يفرضوا تسلطهم باسم خدماتهم الجليلة على شعوبهم أولا ، لأنهم تربوا مع شعوبهم على نفس القيم التى يسمونها بـ « الديمقراطية » . فهم لا يؤمنون بالتسلط . وإن آمنوا به فى ذوات أنفسهم لم يستطيعوا أن يفرضوه، ولذلك نجد أن رجلا محبوبا عند الإنجليز كـ (شرشل) أسقط بعد الحرب مباشرة وكان رئيسا للوزراء وهو الذى أجرى الانتخاب .

ومثله « ديجول » عندما أسقطه الفرنسيون فى الاستفتاء المشهور ، فقد استقال من فوره ، ولم تكن قد وجبت عليه الاستقالة رسميا ، لأنه أدرك أن نتيجة الاستفتاء إنما هى رفض لآرائه الشخصية .

وحدث مثل ما حدث لذينك الرجلين ، لكثير من قادة تلك الدول .

ولايجب أن يفهم من كلامى أنى أدعو إلى اتباع طريق هؤلاء فى الحكم والسياسة ، أى إلى « الديمقراطية» الغربية العلمانية ، ذلك لأن المسلمين لايسعهم إلا اتباع طريق الإسلام وحكمه فى الشورى وإقامة الحق والعدل بالميزان.

إنما الذى أريد أن أقوله إن أى شعب إذا تربى من حيث المجموع على قيم معينة ، فانه يدافع عنها ، ولايستطيع أن يخل بها أو يتجاوزها أى مسؤول ليفرض جبروته على مجموع الناس .

إن المسلمين إذا أدركوا حقائق الإسلام وتوحدوا على مذهبيته الشاملة فى الوجود ، إيمانا وسلوكا وواقعا ، انتهى بينهم قهر رجال أمثالهم لهم ، وانتهى بينهم نفاق بعض من يتسمون بعلماء الإسلام .

إن الفرد الذى يعلم جيداً أنه لايستطيع فرض القهر لن يحاول أن يفعل ذلك .

وإن العالم الذى يعلم جيداً أن النفاق يفضحه ويحقره ويسقطه من احترام المجتمع ، يحاول عندئذ اتباع طريق الحق والإخلاص لله ورسوله والنصيحة للمسلمين جميعاً .

وقد يسأل سائل فيقول : ولكن لم لم يحدث ذلك فى العصر الحديث ؟

أقول : لاشك أن الوعى الإسلامى الحديث بدأ بوضوح عند السيد جمال الدين الأفغانى ولكنه ظن أن إثارة الثورة ضد حكام عصره فى نفوس المسلمين هو منطلق التغيير .

وعلى الرغم من أنه كان يؤمن بالتغيير الشامل فى حياة المسلمين غير أنه ركز جهوده على الأول وأهمل التركيز على الثانى ، فانتهى به ذلك المنهج إلى عدم التخطيط لبناء قاعدة إسلامية قوية فى مجتمع ما ، فتبعثرت جهوده وعبقريته ولم يكن بمقدور أى مجتمع إسلامى يومئذ أن يستفيد منها بتركيز ،والذين جاؤوا من بعده من تلامذته والمتأثرين بأفكاره حاولوا نشر حقائق الإسلام عن طريق التربية والتعليم . ومن خلال قنوات الإعلام المتوافر حينئذ ، فانطلقت بدايات الوعى الإسلامى فى مجتمع كان المستعمرون وأذنابهم يخططون لإبعاده عن الإسلام كما مر بنا فى بيان أسباب الأزمة .

ومن هنا فانه لم تحدث محاولات جادة فى العالم الإسلامى لاتباع سبيل التخطيط لاعادة الوعى الشامل إليه فى النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجرى .

ولما أدرك الدعاة والعلماء والمصلحون بعد ذلك بضرورة

التخطيط الجذرى لنقل العالم الإسلامى من حالة السقوط إلى حالة القيام والشعور بالذات وتحمل المسؤولية ، تمهيداً لاستئناف الحياة الإسلامية الحقيقية ، لم يأت ذلك التخطيط قوياً محصنا يبتعد عن طريق الصدام والعنف ، بل جرفته الظروف المحلية والعالمية فاستدرج إلى معارك ، لم يكن معدا لها ، فضرب ضربات قوية معوقة مزقته وزعزعت كيانه ، وحيل بينه وبين بناء المجتمع الإسلامى بالقوة والعنف والتخطيط المعاكس ، بحيث ربى أبناء الجيل بعد ذلك فى ظل الأفكار المادية والعلمانية .

واليوم وبعد التجارب التى مرت بها محاولة التمكين للوعى الإسلامى ، لابد للعقلاء أن يدركوا سنن الله فى الوجود ويفهموا طبيعة العصر وكيفية إحداث التغيير فيه ، فينصرفوا إلى بناء القاعدة بعلم وتخطيط وذكاء ويبتعدوا عن الخوض فى المضاربات السياسية والاصطدامات الفوقية ، كى يتفرغوا إلى القيام بالمهمة الأساسية ، وهى تربية المجتمع الإسلامى على الإسلام عقيدة وشريعة وسلوكا . فالهدم الشامل الذى نراه فى المجتمع الإسلامى لايفيد معه إلا البناء الشامل الذى يبنى على دعامتين (أولاهما) الفهم العميق لأصول الإسلام وقواعده ومقاصده (وثانيتهما) إدراك دقيق لطبيعة تطور الحياة والحضارة فى العصر الحديث .

الفصل الرابع

الاستشراق

ذكرنا أن الاستشراق لعب دوراً تضليلياً تاريخياً ضخماً فى حياة المسلمين وتاريخهم وثقافتهم ودينهم . ولقد تغلغلت الكتابة الاستشراقية المتعددة الجوانب فى حياة الأمة خلال قرن كامل بحيث نفذت إلى كل جزئية من جزئياتها ، لا يدرك خطرها إلا العالم الخبير الموازن بين حقائق الإسلام وأوضاعه الحضارية وبين مزاعم المستشرقين ودراستهم لها .

ولقد قام كثير من علمائنا وكتابنا بالتصدى للإستشراق ومناقشة مناهجه وبيان أخطائه وخياناته العلمية ، مما كان له الأثر الكبير فى الكشف عن مقدماته ونتائجه الفاسدة . إلا أن هذه الدراسات لم ترتفع بعد إلى مستوى المعالجة التاريخية الحاسمة التى تستطيع إلحاق الهزيمة النهائية بعالم الاستشراق ومناهجه الفاسدة وفضح خلفياتها وأهدافها ، ذلك لأن دراسات المستشرقين فى العلوم والمعارف الإسلامية كلها من الكثرة والتنوع والذكاء فى المعالجة بحيث تحتاج إلى جهود يحشد فيها المختصون فى العلوم والدراسات الإسلامية كلها لإصدار مسلسلات وموسوعات علمية تخص الاستشراق والمستشرقين وتكشف فيها جهلهم وأخطاءهم وتعمدهم فى تشويه الحقائق وتزييفها . وهذا لا يتم فى نظرى إلا باتباع ما يلى :

الأول :

فتح معهد للدراسات الاستشراقية فى كل جامعة إسلامية فى العالم الإسلامى يهتم فقط بالدراسات التى صدرت عن المستشرقين فى اللغات الحية كلها وتصنيفها ودراستها من قبل الأساتذة المختصين العارفين باللغات الأجنبية ، كل حسب اختصاصه فى أقسام متنوعة كقسم الدراسات القرآنية وقسم السنة النبوية وقسم الفقه والأصول وقسم التاريخ والحضارة وقسم الفلسفة والكلام والتصوف وهكذا .

وعند عدم وجود الكفاءات العلمية الممتازة الكافية ، يجوز أن يختص كل معهد بنوع من تلك الدراسات من أجل التعمق فيها ، فتتكامل الفروع فى البلد الواحد أو فى عدة بلدان إسلامية .

ولابد أن يقام لقاء بين الأساتذة المشتركين فى تلك المعاهد من أجل . التخطيط وتحديد مناهج البحث وتقسيم الأعمال على البلدان والعصور فى سبيل اشتراك الجميع فى هذا العمل العلمى الإسلامى المجيد وعدم تكرار الأبحاث وازدواجية العمل .

ومن الضرورى جداً عقد هذا اللقاء كل ثلاث سنوات لمناقشة الأعمال ونتائج الدراسات وإغناء التجارب وتبادل الخبرات ثم الاتفاق على جمع النتائج ونشرها من لدن لجان مختصة فى سلسلة علمية مفصلة ، تتحول عبر السنين إلى موسوعة كاملة تدرس

كل ما ثاره ويثيره المستشرقون بعمق ، وترد عليه وتبين وجه الزيف فيه بالأدلة العلمية ، البعيدة عن أسلوب الوعظ والانفعال وكيل الشتائم ، على أن تنشر تلك السلسلة باللغة العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والأسبانية والروسية .

ولابد فى هذه العملية الاستعانة الكاملة بالمستشرقين المسلمين والمستشرقين المنصفين الجدد الذين تزكيهم دراساتهم وجهودهم فى الجامعات الغربية والذين يشهد لهم أهل الخبرة بذلك .

ومن الضرورى أن تقوّم هذه المعاهد الدراسات والأبحاث التى صدرت عن المسلمين حول الاستشراق ، كى تلم أجزاء تلك الجهود المبعثرة وتعرف أين تقف ومن أين تبدأ ، مع نشر ترجمات كتب المستشرقين التى صدرت باللغة العربية وإضافة تعليقات مفصلة فى حواشيها لتحليل ما فيها والرد على الفضائح والأخطاء الشائنة التى وجهها الجهل والأحقاد المتنوعة والتزييف .

الثانى :

توجيه بعض الرسائل الجامعية فى أقسام الدراسات العليا فى الأقسام الإسلامية والإنسانية نحو دراسة آثار المستشرقين بلغات عدة ، بالتنسيق مع معاهد الدراسات الاستشراقية المقترحة ، حتى تضاف الجهود المكثفة إلى جهودها فى سبيل إخراج العالم الإسلامى

من الزيف الثقافى الذى تعرض له من خلال الغزو الفكرى الذى وجه إلى العقلية الإسلامية الحديثة .

الثالث :

لابد من إعطاء تفرغ لغوى للأساتذة والباحثين المختصين فى الدراسات الإسلامية من غير الضليعين فى إحدى اللغات الأجنبية للتضلع فى لغاتها وإلزامهم بإجراء أبحاث حول أعمال المستشرقين التى تصدر تباعا فى الغرب وترجمتها إلى اللغة العربية وكتابة الأبحاث حول نتائجها سلبا أو إيجابا .

الرابع :

إدخال دراسة الاستشراق ومناهجه وتراثه وآثاره فى ضوء ما يقرر فى المعاهد المقترحة من حقائق وما ينشر فيها من دراسات فى مقررات الدراسات العليا فى الأقسام الإسلامية واللغة العربية والتاريخ والحضارة الإسلامية من أجل الحصول على أكبر قدر ممكن من الفائدة فى أثناء البحث والنظر والتحليل والاستنتاج ، لأننا لا نريد أن تبقى الدراسات الجادة التى تخرج من تلك المعاهد بعيدة عن ساحات البحث العلمى العملى فى تلك الأقسام .

ومن الضرورى أن ندخل ، موضوعا من موضوعات السنة الرابعة فى مرحلة الدراسات الجامعية الأولية ، حتى نحصن

مثقفينا ضد كل احتواء ثقافى مزيف ، تمهيداً للقضاء النهائى على أزمة المثقفين فى عالمنا الإسلامى .

الفصل الخامس

الثقافة الغربية

ذكرنا فى بحث أسباب الأزمة أن حجم تأثير الثقافة الغربية على حياتنا الحاضرة فى البلاد الإسلامية ، كان ضخماً وشاملاً سواء الذى نتج من الاحتكاك الطبيعى غير المتكافئ بين الحضارات أم الذى فرض فى ظل المخططات الاستعمارية الثقافية التى فرضت على العالم الإسلامى كله .

وعلى الرغم من المعوقات الكثيرة المتنوعة أمام الحركة الإسلامية الحديثة التى تحارب فى جبهات عدة بإمكانات ضعيفة ، فإنها استطاعت فى النصف الأخير من القرن الرابع عشر الهجرى أن تقف أمام الغزو الفكرى الاستعمارى ، وتنقل العالم الإسلامى من حالة السكون والمرض إلى حالة من الوعى ومعرفة الأمراض ورصد الأعداء والتنقيص من أطراف الأزمة واختراق صفوفها .

غير أن التغيير المطلوب لم يزل فى البداية ولم يزل تيار الثقافة الغربية فى مجالات الحياة كلها هو الطاغى على حياة الأمة ، ولم تزل أزمة التنكر للإسلام هى الاتجاه الغالب على معظم مثقفينا اليوم .

إذن ما العلاج ؟

العلاج يكمن فى جهاد إسلامى شامل يشترك فيه المدركون لمأساة الأمة فى هذا المجال عبر دراسة عميقة،وتقويم أصيل وتخطيط شامل يمكن أن أبنيه على الوجه الآتى :

الأول – الجماعات الإسلامية :

لاشك أن الجماعات والأحزاب الإسلامية فى العالم الإسلامى قامت بالجهد الأعظم فى هذا المجال . لأن القضاء على الأزمة ونشر الوعى الإسلامى من أوجب واجباتها الفكرية ، إلا أن الحصيلة إلى الآن ليست بمستوى الحدث التاريخى المغير المؤثر فى الأحداث بدرجة كافية لسببين :

أولهما :

إن جهود تلك الجماعات والأحزاب الإسلامية مبعثرة وعفوية غير مخططة ، لأنها لم تهتم بهذا الجانب المهم اهتمامها بالحياة العامة . ولذلك تأتى جهودها فى هذا المجال عامة وغير علمية بالمعنى الصحيح ومن أجل سد هذا النقص وتحويل الاتجاه إلى اتجاه فكرى علمى مجدد مدروس ، لابد من اتباع الخطوات الآتية :

– مسح الطاقات الفكرية الإسلامية وحشدها فى معاهد علمية إسلامية خاصة تزود بمكتبة جيدة ، علمية ووثائقية تدرس الإسلام

دراسة عميقة فى إطار أصوله وقواعده ، بمعزل تام عن ردود الفعل تجاه الأوضاع السياسية الآنية وتقوّم ما تم إلى الآن من منجزات الفكر الإسلامى الحديث فى المجالات كافة ، وترصد التيارات الفكرية المناهضة للإسلام دراسة عميقة فى ضوء أسلوب الحوار والمناقشة ، موجهة تلك الدراسات إلى الحاضر والمستقبل ، من خلال إنهاء الاهتمام بالدراسات المتحفية أو ما يسمى بتحقيق التراث الميت أو المكرر أو الذى لايمت إلى الحاضر والمستقبل بصلة . بل إن هذه الدراسات التحقيقية والتاريخية ، حتى فى حالة كونها مفيدة تترك إلى المعاهد الخاصة بمثل تلك الدراسات .

إن المعاهد المقترحة هذه لابد أن تهتم بالدراسات الفكرية الإسلامية الحديثة والتى تشكل أساس الصراع الحضارى فى العصر الحديث .

— تخصيص ميزانية ثابتة لاختيار بعض الطلبة الأذكياء الملتزمين المتميزين ودفعهم إلى الدراسات العليا ، فى مجالات العلوم الإسلامية والإنسانية الحديثة ، بإرسالهم إلى الجامعات المتقدمة فى الغرب للتضلع فى لغاته والاطلاع عن كثب على أوضاع ثقافته ودراسة التيارات السائدة فى حضارته فى ضوء الإسلام . والاشتراك بذلك فى أسلمة العلوم الإنسانية وإيجاد الحلول الحضارية الحديثة ، لمشكلات العالم الإسلامى فى إطار مذهبية الإسلام فى الوجود .

ـ الانتقال من المبادئ والأفكار العامة التى تسع العصور جميعها فى فهم الإسلام إلى تحديد المناهج المرحلية الواضحة المحددة المستوعبة لعملية التغيير الحضارى والتى تتصل بحياة ومشكلات ومعضلات حياة الجماهير الإسلامية الواسعة وتبنيها وتأصيلها بحزم ونشرها والتمكين لها بالوسائل المختلفة فى المجتمع من حيث كونه بديلا حضاريا مرحليا واضحا يستطيع أن يزحزح المناهج العلمانية والمادية المسؤولة عن الأزمة الفكرية والحضارية القلقة التى دفعت العالم الإسلامى إلى حياة الذل والتبعية .

ـ التلاقح المستمر بين نتاجات الفكر الإسلامى فى اللغات الإسلامية المتنوعة وترجمتها إلى اللغة العربية واللغات الإسلامية الأخرى حتى يستفيد كل جزء فى الحركة الثقافية الإسلامية العالمية من خبرات وتجارب وإبداعات الجزء الآخر .

ـ إن الجهاز الثقافى لأية جماعة إسلامية أو حزب إسلامى ، لابد أن يحتوى على مطبعة حديثة ودار نشر حديثة ، حتى تستطيع أن تطبع وتنشر المطبوعات الإسلامية وتوصلها إلى أجزاء البلاد كافة درءاً لما قد يوضع من العقبات أمام النشر الإسلامى ، على أن تطبع هذه الدراسات بكميات كبيرة وتطرح فى الأسواق بأسعار مخفضة لاسيما فى البلدان الإسلامية الفقيرة .

ـ إنشاء كليات إسلامية ذات أقسام متنوعة توضع مناهجها

لإعداد المثقفين والدعاة علميا وسلوكيا ، مع الابتعاد عن الدراسات التراثية التقليدية والتركيز على الدراسات الإسلامية الحديثة التى تخدم الحركة الحضارية الإسلامية فى الحاضر والمستقبل .

الثانى : الجامعات والكليات الإسلامية :

لاشك أن الجامعات والكليات الإسلامية قد أدت إلى الآن دوراً مهما فى نشر العلوم الإسلامية وتثبيت حقائق الإسلام والدعوة إليها ، والكشف عن الشبهات والأباطيل التى وجهت إليه .

غير أن ما أدته إلى الآن إذا ما قورن بما كان يجب عليها أن تؤديه يعد بداية لم تصل إلى مستوى الحدث التاريخى وذلك للأسباب الآتية :

— مناهج هذه الكليات مازالت تتبع الأساليب القديمة فى التفكير والعرض ، ومازالت تقدم فى جوانب كثيرة ، مادة معرفية قديمة ، نابعة من مراحل زمنية سابقة بمشاكلها وهمومها ومعضلاتها . فمازال الفقه وأصوله والتفسير وعلومه والكلام والفلسفة والتصوف يدرس بطريقة القدماء نفسها ، الأمر الذى يحدث ثغرات مهمة عند الخريجين فى الثقافة المعاصرة ، الإسلامية وغير الإسلامية .

إن هذه الكليات والجامعات ، تقوم بدور تراثى تاريخى

أكثر من القيام بدور أساسى لبناء ثقافة نابعة من حاضرنا ، أى أن هذه الجامعات لم تدخل بعد فى العصر الحديث بأبعاده كلها .

– بناء على ما سبق فإن هذه الجامعات بطرائق تفكيرها لاتخرج الفلاسفة والمجتهدين والمفكرين الإسلاميين الذين يعرفون كيف يفهمون الإسلام ويربطونه بصراع العصر ، ويستفيدون من طرائق ومناهج الثقافات الحديثة ويهضمونها ليخرجوا لنا ثقافة إسلامية حديثة ، أى أن هذه المؤسسات الثقافية الإسلامية بعيدة إلى الآن عن البدء بأسلمة العلوم الإنسانية .

إن كثيراً من تلك المؤسسات تخرج طلابا لايعرفون طبيعة العصر ومبادئه وفلسفاته وتيارات الحضارة فيه ، ولذلك يبقون بمعزل عن التطورات الحادثة التى أوجدت الأزمة الثقفية المناهضة للإسلام فى مجتمعاتنا الإسلامية .

لقد كانت جامعاتنا ومؤسساتنا الثقافية القديمة أكبر أتصالا بالحياة ، إذ تعاملوا مع الثقافات الغازية بفاعلية وإيجابية أستفادوا منها وناقشوها وردوها ، وكانوا دائما ينطلقون من القاعدة الإسلامية فى التعامل العقيدى والفكرى معها ، ولذلك خرجت تلك المؤسسات عظام المفكرين وأساطين العلماء وكبار المجتهدين .

– إن الدراسات العليا فى تلك الجامعات أخفقت إلى حد كبير فى أداء مهمتها التاريخية ، لأنها دراسات فى معظم الأحوال ناقلة

وليست مبدعة ، هم أكثرية الدارسين فيها الحصول على الشهادات ولذلك تجد عملهم ليس إلا ترتيبا جديداً لأبواب العلوم الاسلامية المعروفة ، بلا إضافة ولا تجديد ولا حل إشكال ولا اجتهاد جديد .

إنى بعد أن اطلعت على مئات الرسائل المقدمة فى عدد من الجامعات الإسلامية ، مناقشة وقراءة واستعراضا ، تبين لى أنها رسائل تراثية متحفية تعيد لنا الماضى ، ولاتخطو بنا إلى الحاضر والمستقبل ولا تشرك فى القضاء على مظاهر الأزمة الثقافية والحضارية التى نمر بها .

إن الرسائل الجادة المبدعة المتميزة فى الجامعات والكليات الإسلامية كافة التى تتصل بمعالجة مشكلاتنا التى تتصل بالحاضر والمستقبل لا ترقى فى أعلى التقديرات على العشرة فى المائة ، أى أن التسعين فى المائة الباقية إعادة لمعلومات سابقة ، فهى جهود مهدورة وأزمان ضائعة وأموال تصرف فى غير محلها .

— معظم الأساتذة الذين يدرسون فى تلك الجامعات والكليات ليسوا بعلماء ولا مفكرين ولا مجتهدين ، وإنما هم نقلة لمعلومات الكتب القديمة . طرائق تفكيرهم بالية ، لايعرفون مناهج البحث العلمى ، لا عند علمائنا العظام ولا فى الدراسات الحديثة ، بل لا يهم كثيراً منهم أمر الإسلام ومأساته فى هذا العصر ، فهم أشبه مايكونون

بالموظفين الذين يأخذون رواتبهم لقاء عرض ما فى الكتب على الطلبة لا أكثر .

– أما الطلبة الذين يقبلون فى هذه الجامعات ، فلا يقبلون لأنهم متميزون،لا ذكاء ولا ممارسة إسلامية. وكثيرون من الذين يقبلون فى هذه الجامعات وللكليات يقبلون لأنهم لم يجدوا مكانا فى كليات أخرى .

إن هؤلاء يدخلون ويتخرجون من تلك الكليات وهى فى أوضاعها السالفةالذكر ، وهم فىالحالة نفسها من الاضطرابالفكرى والأزمة الثقافية والبعد السلوكى عن الإسلام ، زد على ذلك أن الأكثرية الساحقة من الخريجين تنقطع صلتهم بالإسلام حال توظيفهم فى وظائف لاتمت إلى اختصاصهم بصلة .

فى ضوء ما سلف فان مشكلة الجامعات والكليات والمعاهد الإسلامية لابد أن تحل باتباع الخطوات الآتية :

– تحديد الهدف والمقاصد بوضوح من فتح تلك المؤسسات .

– تغيير جذرى فى مناهجها والعلوم التى تدرس فيها بحيث تربط ارتباطا عضويا بالتخطيط والتنمية للحاضر والمستقبل .

– لابد من اشتراط الذكاء وحسن السيرة والالتزام الكامل بالإسلام فى قبول الطلبة حتى يتحولوا بعد التخرج إلى دعاة صادقين للإسلام عاملين بمبادئه وآدابه .

– الاقتصار فى القبول فى أقسام الدراسات العليا على الطلبة الأذكياء المتميزين الملتزمين بلا تفرقة ولا وساطة .

– عدم السماح فى فروع المعرفة الإسلامية كلها بتسجيل الأبحاث العلمية إلا فى الموضوعات التى تهم حاضرنا ومستقبلنا وتقدم لحياتنا شيئا جديداً وإبداعا مفيداً .

– منع تسجيل الرسائل فى قضايا تحقيق التراث وترك ذلك إلى المؤسسات الرسمية المختصة الأخرى التى تهتم بذلك ، لأن تحقيق الكتب التراثية فى الجامعات غدا متكأً للطلبة الضعاف فى معظم الأحوال ، ثم إن معظم تلك التحقيقات لاقيمة علمية لها ولا علاقة لها بصراعنا الحضارى فى الحاضر والمستقبل ، زد على ذلك صرف الجهود والأموال فى غير محلها .

– إحداث نظام تفرغ الأساتذة لسنة واحدة بنظام عادل ، لارسالهم إلى الجامعات الغربية من أجل التقوية فى اللغات الأجنبية والاطلاع على مناهج القوم ومراقبة التطور الحضارى وعلاقة ذلك سلبا وإيجابا بتطور الحياة فى العالم الإسلامى ، وكتابة بحث مبدع فى قضية من القضايا المعاصرة التى تضيف جديداً على معارفنا وخبراتنا منهجا ومعرفة .

– فتح مكتبات الدراسات العليا فى تلك الجامعات أمام الكتب الحديثة والمترجمة لمؤلفين مسلمين وغير مسلمين ، مهما

كانت موضوعاتها مضادة للإسلام . لأن طلبة الدراسات العليا فى أبحاثهم لابد أن يطلعوا عليها . فالاطلاع عليها يفيدهم فى أمرين (أولها) تنبههم إلى قضايا ومسائل ليسوا على علم بها قد تنتهى بهم عكسيا إلى تسخيرها لخدمة الإسلام (ثانيهما) معالجة المعلومات الواردة فى تلك الكتب فى ضوء المذهبية الإسلامية فى الكون والحياة قبل انتشارها بين الطبقة المثقفة فى البلاد . وهذا الأمر له علاقة مباشرة بالقضاءعلى الأزمة الثقافية المنتشرة فى العالم الإسلامى.

– فتح مركز أبحاث فى كل جامعة إسلامية لغرض التخطيط من أجل أسلمة العلوم الإنسانية الحديثة كالفلسفة وعلم الاقتصاد وعلم السياسة وعلم الاجتماع وعلم النفس والقيام بالأبحاث الفكرية الإسلامية فى هذه المجالات التى تتصل اتصالا مباشراً بعملية التنمية الاجتماعية وتخصيص جائزة سنوية لأفضل ثلاثة أبحاث متميزة أصيلة فى تلك المجالات .

الثالث : مقررات التربية :

لاشك أن مناهج وزارات التربية فى البلاد الإسلامية قد وجهت توجيها منحرفا منذ عهود الاستعمار والحماية ، سيطر عليها الخبراء الأجانب من خلال مخططات المستعمرين ووجهوها وجهة علمانية لا دينية تقطع العلوم والمعارف الإنسانية عن مجمل الحركة الكونية الشاملة التى تمثلها المذهبية الإسلامية فى الوجود. وكانت

النتيجة أن انفصل التعليم الإسلامى عن التعليم الكونى مع إهمال مقصود للتعليم الإسلامى ، بل محاربته وحصره فى دوائر ضيقة جداً وقطع سبل الحياة أمامه كي ينضب معينه ويقل دارسوه ، فيتحول إلى دراسات لاهوتية ، مقطوعة الصلة بالحياة وحركة المجتمع تدرس فى حلقات المساجد من حيث هو تراث تقليدى شأنه شأن التراث الشعبي « الفولكلور » وآثار الحضارات البائدة فى المتاحف.

وعندما تحررت البلاد الإسلامية ظلت تلك الآثار المدمرة مستمرة فى مناهج التربية والتعليم عقوداً أخرى من الزمان ، لأن المثقفين الجدد الذين تخرجوا فى إطار التربية الاستعمارية اتخذوا مواقفهم العنيفة من الإسلام وحضارته وحاولوا بكل قوة أن تستمر سيطرة المناهج المادية والعلمانية التى تربوا عليها .

واستجابة لصيحات بعض المخلصين وعلماء الإسلام هنا وهناك أدخل موضوع « الدين » أو « التربية الإسلامية » فى مناهج المدارس ولكن فى صورة هزيلة مهملة من حيث الكتاب المقرر وأهمية الموضوع ومدرس المادة . ومن هنا فان هذه المادة لم تضف جديداً ولم تعالج أزمة ولم تصحح مواقف ، ولا استطاعت أن تصوغ الحد الأدنى من السلوك الإسلامى الصحيح فى الأجيال الجديدة . ونتج من ذلك استمرار الأزمة الثقافية وتمكن المناهج العلمانية والفصل الكامل بين ما يسمى بالتعليم الدينى والتعليم العام .

واستمرار هذه الحالة يضر ضرراً جسيماً بحركة التربية والتعليم فى الأقطار الإسلامية، وينتهى إلى استمرار ابتعاد الجيل عن المفاهيم والقيم الإسلامية السليمة ، مما لا يمكن أن تتجاهل دراسة نتائجه التاريخية المدمرة على حركة التنمية الاجتماعية فى العالم الإسلامى .

وانطلاقا من تجربة أكثر من ربع قرن لى فى مجال التربية والتعليم والتدريس فى المدارس الثانوية والجامعات أستطيع أن أقترح المخطط التربوى الآتى لعلاج هذه الأزمة الثقافية .

الأول : فلسفة التربية :

إن فلسفة التربية فى أى مجتمع لابد أن تنبثق من ظروف وخصائص وأهداف ذلك المجتمع . والمجتمع الإسلامى لابد أن تنبثق فلسفته التربوية من المذهبية الإسلامية فى الوجود لسببين :

(أ) لأننا نؤمن بتلك المذهبية الإسلامية ، باعتبارها وحيا إلهيا وليس فكرا بشريا متغيرا ، فنحن لا خيار لنا إلا فى التمسك بها تمسكا واعيا . وأى تردد فى ذلك يخرجنا من دائرة الإسلام، وإلا فكيف يمكن أن ندعى الإسلام وفلسفتنا التربوية تنبع من مصادر أوربية مادية بحتة ، لها أصول وجذور معروفة خضعت لتطور حضارى خاص تتصادم مع الإسلام فى منطلقاته الأساسية .

ومن المؤسف أن أقرر أن فلسفتنا التربوية فى البلاد الإسلامية

مازالت بعيدة عن الإسلام ومذهبيته فى الوجود ، فهى تعتمد على المذهبيات التى نتجت عن تطور الحضارة الغربية والتى تأثرت تأثرا بالغا بنظرية التطور التى عدت الإنسان حيوانا متطوراً فعاملته على هذا الأساس الذى فصله عن جانبه الروحى فأفقده التوازن والخروج الصارم على الدوافع الإنسانية المركزة فى خلقه .

(ب) إن المذهبية الإسلامية التى تنطلق من الوحى الإلهى ، هى مذهبية فطرية تنظر إلى الإنسان نظرة شمولية تربطه بخالقه وتضعه فى مساره الإنسانى الصحيح ، فهى لاتريد من تربيته له أن يكون ملكا أو حيوانا ، وإنما تريد منه أن يحافظ على إنسانيته فى إطار فطرته .

فالإنسان مخلوق من المخلوقات الكثيرة على هذه الأرض ، يشترك معها فى كثير من غرائزه وطعامه وشرابه وتوالده ، غير أنه يمتاز عليها بميزة الاستقامة والخلق السوى وخصوصية التفكير الذى يمكنه من إدراك الحقائق الخارجية والتعبير عنها وعما فى نفسه من المشاعر والخلجات .

ويتميز الإنسان على الحيوان بما خلق الله فيه من الجانب الروحى والقدرة على السمو والارتقاء فيه .

كرم الله تعالى الإنسان بناء على هذه الميزات الخلقية والروحية والعقلية التى وهبه إياها على كثير ممن خلق ، وكلفه وجعله

مسؤولا وحملة الأمانة الكبرى وهى تحقيق الخلافة على هذه الأرض بانشاء الحضارة الفاضلة عليها .

والإنسان الكامل هو الذى يوازن فى كيانه بين جوانبه الحيوانية والعقلية والروحية بحيث لايطغى جانب على جانب آخر لكى يحصل الاتزان المطلوب فى سيره لأداء الأمانة الكبرى ، حتى لايختل واجبه ولاينحرف .

وهذه الجوانب لها استعداد دائم للرقى إذا ما وجهت توجيها شاملا يأخذ بعضه برقاب بعض ، فالحيوانية يوجهها الإدراك ويضبطها الشعور ، وانحراف العقل تضبطه يقظة الروح والوجدان الذى يربيه الوحى الإلهى فيصل إلى حالة التقوى .

ولكى يستطيع الإنسان القيام بالأمانة الكبرى سخر الله له الكون وقوانينه ليستثمرها وينتفع بها فى إقامة الحياة والحضارة .

ولقد استطاع الإنسان المسلم لاسيما فى ظل هذا الفهم الحقيقى للإنسان وعلاقته بالكون أن يتحرك بوضوح وقوة لإقامة الحضارة الإسلامية خاصة ، والإنسانية عامة .

ولكى يستطيع الإنسان أن يتحرك فى ظل منهج علمى عقلى واضح دعاه سبحانه وتعالى إلى النظر والتفكير ليصل عن طريق المشاهدة والملاحظة والاستقراء والاستنباط إلى الحقائق والقوانين

التى يستغلها لإحداث التغيير المطلوب والتجديد المستمر فى الحياة الإنسانية والكونية .

إنه يستطيع أن يقوم بهذا العمل الحضارى على الأرض لأنه من اختصاص عقله وطاقاته التى زود بها ، ولكن فى ضوء الوحي الإلهى الذى وضع الحقائق الكلية أمامه .

ولايوقف الإسلام الإنسان عند حدود الأرض الضيقة ، لأن الوقوف عند تلك الحدود هو من شأن الحيوانات ، بل يدعوه إلى أن يتخذ من دلائل الأنفس والآفاق طريقاً إلى الخالق العظيم والمنعم الكريم كى يتصل به ويعبده ولا يعبد غيره ، وفى عبادته له لا لغيره السعادة الكبرى ، لأنه عند ذلك ينظر إلى الناس جميعاً باعتبارهم عيال الله وهو من هؤلاء ، عبد مثلهم . من الجدير أن يبنى علاقته بهم على أمتن الروابط وأعلاها وأدومها وبذلك سينتشر الخير فى المجتمع الإنسانى كله .

إن العبودية لله تعالى تعني شعور الإنسان بعظمة الخالق ونعمه التى لاتحصى على الإنسان وانتظاره للمزيد من رحمته والتوكل النهائى عليه مع اتخاذ جميع الأسباب والاستفادة القصوى من جميع السنن ، وشعوره بمسؤوليته الكاملة فى أداء دوره فى الحياة . ومن هنا ينبعث أساس النظام الأخلاقى فى الإسلام الذى يضبط سلوك الفرد وسلوك الجماعة .

ولما كان الإنسان مكلفا خلق الله تعالى فيه قدرة الاختيار كى يحقق مسؤوليته فى الاختيار ، وهذا الاختيار هو ضمن المشيئة الإلهية الكونية المطلقة ، لأنه محاط بنظام كونى مقدر لله سبحانه وتعالى، فبارادة الله وجد، وبارادة الله قدرت خططه وسننه وقوانينه ولهذا كان الله سبحانه عالما به قبل حدوث حوادثه ، لأنه هو المقدر للسنن التى تجرى هذه الحوادث تبعاً لها .

الثانى : واقع التربية والتعليم :

(ا) رياض الأطفال :

إن معظم أطفال المسلمين الذين يصلون إلى سن الخامسة ، لايتلقون أى توجيه إسلامى مناسب لهذه المرحلة من أسرهم . فالأسرة المسلمة مازالت بعيدة عن جو الإسلام عقيدة وممارسة . فهؤلاء الطلاب لايعيشون داخل إطار حياة إسلامية متكاملة عملية . فالوالدان والإخوة الكبار لايؤدون الفرائض ولا يقرأون القرآن ولا يربطون تصرفاتهم بأحكام الإسلام وموازينه ، أى أن الإسلام يكاد يكون غائبا كليا عن حياة تلك الأسر الإسلامية .

إذن الطفل المسلم فى هذه المرحلة قد يسمع الأسماء .. الله .. الإسلام .. محمد .. ولكن فى صور عابرة متباعدة متقطعة ، لاروح فيها ولا واقع ولاتكامل ولا توجيه .

هنا يبرز دور رياض الأطفال فى التربية الإسلامية ، لو أحسنا التخطيط المناسب واخترنا المعلمة المناسبة المتدينة الواعية المدربة التى تستطيع أن تهيئ الجو عبر سنة أو سنتين من حياة الطفل لممارسة الحياة الإسلامية المناسبة لسنهم عن طريق تعليمهم مبادئ الشهادة والصلاة وتلاوة بعض الآيات المختارة ورواية بعض القصص عن إيمان وجهاد الصحابة الكرام وتركيز الأخلاق الإسلامية فى السلوك والمعاملة وجلب نظر هؤلاء الصغار إلى الأعياد والمناسبات الإسلامية ، وبذر بذور حب الله ورسوله والمعانى الإسلامية فى نفوسهم .

(ب) المدارس الابتدائية :

هذه المرحلة فى غاية الخطورة لأنها الأساس والقاعدة التى تبنى عليها فلسفتنا التربوية شخصية الطفل وكيانه الإنسانى . فهى على ذلك مرحلة تربوية بالدرجة الأولى ، لأنها مرحلة بناء القيم وصياغة حياة الطفل من السادسة إلى الثانية، فإذا كان الأمر كذلك فلابد من الاهتمام بمعلم التربية الإسلامية من حيث :

- اختياره وتكوينه والتزامه .
- الاهتمام بالكتاب المدرسى ، شموليته وواقعيته وتشويقه .
- الاهتمام بمصلى المدرسة ، مكانا جماعيا للتطبيق والتعارف والتآلف والاستشعار بجو المحبة والروحانية ووحدة المجتمع .

— الاهتمام بالأناشيد الإسلامية التي تبذر بذور الخير والمحبة وحب الله ورسوله والمسلمين والإنسانية أجمعين في نفوس هؤلاء الصغار .

— الاهتمام بمكتبة الطفل الإسلامية في إطار مكتبة المدرسة حيث توضع فيها الكتب المبسطة والقصص الإسلامية المصورة .

— الاهتمام بالوسائل التقنية المناسبة الحديثة من الصور والأشرطة السينمية وأشرطة التسجيل و (الفيديو) التي تجسد الأفكار وتضع الطفل أمام استعمال حواسه كلها في فهم الإسلام وتربيته على مبادئه وأحكامه ومثله .

ومن العجب أن يؤخذ الطلاب في هذه المرحلة إلى بعض الأماكن الأثرية والمؤسسات الصناعية لزيادة الخبرات ، وهو شيء جيد ، ولا يؤخذون إلى المسجد القريب لأداء الصلاة الجماعية مع المسلمين والتعود على الارتياد إلى بيوت الله سبحانه وتعالى .

(حـ) المدارس الثانوية :

هذه المرحلة تكمل المرحلة السابقة من حيث إنها مرحلة تعليمية بالدرجة الأولى ، تحتاج إلى توجيه إسلامي خاص يبدأ بالتدرج من التربية إلى التعليم الإسلامي الرصين المبني على أسس صحيحة مناسبة . فالسنة الأولى والثانية مرحلة انتقالية تحتاج إلى

مزيد من التركيز التربوى بجانب تركيز أوليات التعليم الإسلامى المبنى على أساس مراعاة العقل والعاطفة والتعامل معهما بدقة ، ثم يبدأ الاهتمام بالتعليم يغلب بدءا من السنة الثالثة بحيث لايتخرج الطالب من المرحلة النهائية إلا وهو يفهم الإسلام فهما جيداً فى أصوله ومبادئه وأحكامه وتاريخه وحضارته وخصوصيته من خلال :

- اختيار المدرس المثقف المتنور المختص الملتزم الواعى المدرك لعصره والصراع الفكرى فى مجتمعه .

- الاهتمام بالكتب التى تعرض الإسلام عرضا شموليا فى مذهبيته العامة فى الوجود وأنظمته التفصيلية ، وخصائص حضارته وسلوك رجالاته بمنهج علمى إسلامى عقلى مبنى على الأدلة والبرهان بعيد عن منهج الوعظ والإنشائية وتحريك مجرد العواطف .

ذلك لأن الطفل فى هذه المرحلة يدخل فى فترة المراهقة وفيها ينمو المراهق فى عقله وطاقاته ويبدأ بالتساؤل عما حوله وتكثر أسئلته ومشكلاته الفكرية وصراعاته النفسية فاذا استطعنا أن نجيبه من خلال هذه الكتب المنهجية ومن خلال المدرس الواعى الناجح استطعنا أن ننقذه وننتشله من الأزمة الحضارية الحاضرة التى مزقت كيان جيلنا وأسلمتهم إلى الجهل والتردد وتصادم القيم والأفكار .

- الاهتمام بموضوع التربية الإسلامية من تكثير ساعاته

وإدخاله درساً مستقلا فى الامتحانات العامة وعدم السماح لغير المختص الملتزم بالعلوم الإسلامية بتدريسه فى الصفوف كافة .

– الاهتمام بالعناصر التكميلية التربوية الأخرى من المسجد والمكتبة الإسلامية والأساليب التقنية الحديثة وارتياد مساجد المنطقة .

الرابع : وزارات الأوقاف والشئون الإسلامية :

هذه الوزارات يمكن أن تقوم بأدوار خطيرة فى القضاء على أزمة المثقفين فى الحاضر والمستقبل ، عبر مخطط ثقافى إسلامى بعيد عن الدعاية للدول التى تنتمى إليها ، وإنما يكون الهدف الجوهرى والنهائى خدمة الإسلام ونشر ثقافته وبث الوعى من خلال جميع المنافذ التى تستطيع أن تنفذ منها وعدم تحولها إلى مؤسسات تراثية كما هو الوضع الحالى لهذه الوزارات .

ولابد من الخطوات التالية إذا أرادت أن تخلص لله وتتفرغ لخدمة الإسلام ، وتنفق أموال المسلمين فى الوجوه التى أوقفت من أجلها :

الأول :

تشكيل لجنة الخبراء فى الوزارة من جمع من العلماء الورعين الذين عرفوا بالعزة والاستقامة وعدم الخوف إلا من الله وعدد من

الأساتذة الجامعيين المختصين بالدراسات الإسلامية ، المعروفين بالفكر المتنور والموضوعية والاستقامة والغيرة على الإسلام ، واجبها التخطيط السنوى والفصلى والموسمى لمشاريع الوزارة الإسلامية الثقافية فى جوانب الحياة كلها ، تجتمع مرة كل شهر ولابد أن تكون قراراتها ملزمة لأجهزة الوزارة كلها ، كى تأخذ دورها إلى التطبيق المخلص .

الثانى :

لابد فى ديوان كل وزارة أن تتكون لجنة ثقافية تتفرع من لجنة الخبراء تقوم بالمهمات الآتية :

(أ) إصدار مجلة مركزية بأرقى ما يكون من إخراج وإخضاع المقالات والأبحاث التى تنشر فيها للتحقيق والتدقيق ، كى لايكون النشر فيها طريقا للارتزاق والسطحية والاجترار .

ولابد أن تكون هذه المجلة فكرية ، تهتم بعرض تفاصيل مذهبية الإسلام فى الوجود والدخول فى معركة الصراع الفكرى بين الإسلام وبين المبادئ المادية والعلمانية ، عبر حوار موضوعى عقلى قائم على أساس البرهان والإقناع بعيداً عن التوتر والإنشائية وأسلوب الوعظ ، ينشر فيها كل جديد وتجسد جوانب الأبداع الفكرى الإسلامى فى نواحى الحياة كلها .

ولا يجوز أن تتحول هذه المجلة إلى الاهتمام بالدراسات المتحفية والتحقيقات التراثية والموضوعات الميتة كما هى الحال مع الأسف فى معظم المجلات التى تصدر عن تلك الوزارات فى الوقت الحاضر. حيث لايقرؤها الجيل الحديث .

إن سبب إخفاق معظم المجلات التى تصدرها وزارات الأوقاف فى قيادة الجيل والتعبير عن آماله وأحلامه المستقبلية تكمن فى قضايا هى :

(أ) اتباع بعضها سبيل النفاق الرخيص وتدبيج المقدمات والمدائح لرؤساء الدول التى تصدر فيها .

(ب) تحولها إلى مجلات تراثية مملة لاعلاقة لها بالتخطيط للتنمية الحضارية فى الحاضر والمستقبل .

(ح) رداءة إخراجها .

(د) البخل فى المكافآت التى تخصص للنشر فيها .

(هـ) غلاء ثمنها فى بعض الأحيان .

(و) عدم الاهتمام بتوزيعها .

ولابد أن تصدر المجلة كتابا فصليا فى موضوع فكرى يتصل بقضية مهمة تنتظر الحل وتشغل بال المجتمعات الإسلامية المعاصرة .

ومن الإنصاف أن أقول إن مجلة « الأمة » وكتابها الفصلى اللذين يصدران فى قطر عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية

تمكن أن يكونا نموذجين رائعين لتلك الشروط ، ولذلك نجدهما يطبعان باعداد كبيرة وينتشران فى أنحاء العالم كله ، يقبل عليهما الجيل المثقف الجديد بحرارة ويعد موضوعاتهما من صميم حياته الحاضرة بكل أبعادها ومشكلاتها .

(ب) إصدار سلسلة إسلامية ثقافية من حجم سلاسل الجيب تعرض مبادئ الإسلام وأنظمته التفصيلية ومشاكل المسلمين المعاصرة عرضا سهلا يستطيع أن يفهمه عامة المسلمين ممن حصلوا على الحد الأدنى من التعليم والثقافة ، وهى ضرورية جداً لتحويل الثقافة الإسلامية إلى ثقافة جماهيرية تستطيع أن تقوم بتصفية الفكر الخرافى الذى نسج حول الإسلام عبر عصور التخلف والتأثر بالروافد الأجنبية فى ثقافتنا العامة .

إن هذه السلسلة أهم بكثير من سلاسل الكتب التراثية الميتة التى تبقى فى رفوف المكتبات ، لايراجعها إلا عدد محدود جداً خلال سنوات عدة ، لأنها كتب لا قيمة لها علميا . فعلوماتها مكررة لا حاجة إليها ، ولا تشترك فى إغناء ثقافتنا الحاضرة . ولقد اطلعت على سلاسل من هذه الكتب ، فوجدت أن عدم نشر معظمها لايحدث خللا ولا يلحق بالأمة ضرراً . ومع ذلك فان هذه الوزارات تصرف على نشرها فى كل بلد مئات الألوف من الدنانير ، ولو وجهت هذه الأموال إلى خدمة ثقافتنا الإسلامية

المعاصرة ومعالجة هموم المسلمين وحل مشاكلهم لما احتجنا فى أداء ذلك إلا إلى بعض ما يصرف على تلك الكتب المتحفية الميتة .

إن تلك الوزارات إذا أرادت أن تنشر بعض الكتب القيمة الفريدة فى العلوم الإسلامية ، فلابد أن يكون نشرها فى أضيق نطاق ممكن ، ولكتب تشهد اللجان المختصة بضرورة نشرها . ومثل هذا قليل جداً ، إذ أن الكتب الأساسية فى العلوم النقلية والعقلية والكونية فى حضارتنا قد نشرت ، فلا نحتاج إلى المزيد إلا فى الحدود التى ذكرناها ، لأن كثيرا من المخطوطات تكرر المعلومات نفسها . فلماذا نصرف أموال المسلمين فى غير موضعها ؟

حـ – المطلوب من الوزارة المذكورة أن تهتم بمسألة توجيه المسلمين فى المساجد ، لأنه من مهماتها الأساسية . وهذا يكون بما يلى :

١ – إنشاء دورات سنوية لخطباء المساجد ووعاظها لتزويدهم بالمعارف المتنوعة ، والثقافة المعاصرة حتى يعيشوا فى هذا العصر ويتصلوا بالناس ويدركوا صراعات ومأساة حياتهم. ومن الواجب الاستعانة فى هذا المجال بالعلماء المتضلعين المتنورين والمختصين من أساتذة الجامعات ، حتى يحصل التأثير المطلوب ، لإخراج الأئمة والخطباء من الأزمة الثقافية التى يعيشون فيها ، فمعظم هؤلاء ثقافتهم محدودة ، ومادتهم المعرفية المعاصرة قليلة . زد على ذلك عدم امتلاكهم للمنهج الإسلامى الرصين فى التربية والتوجيه .

والمسلمون فى أكثر بلاد الإسلام يشكون من هذا النقص الخطير .

فملايين المسلمين فى كل بلد إسلامى يدخلون المساجد ثم لايسمعون من الخطباء والوعاظ إلا كلاما معاداً مكرراً فى موضوعات ضيقة معتادة . والمجيدون القليلون المتنورون منهم لاينجون من المضايقة والمحاربة والتجميد .

ولذلك ظلت جماهير الأمة الإسلامية بعيدة عن الفهم الشامل لعقيدتها وشريعتها ومشكلاتها وصراعها مع أعدائها .

ومن هنا فانها لم تستوعب بعد مأساة الإسلام والحيلولة بينه وبين الحياة ، ولم تدرك المعركة الهائلة مع أعدائه والمتربصين به .

ولقد كان هذا من أسباب حدوث الأزمة الثقافية المضادة تجاه الإسلام ،وستظل تلك الأزمة سارية فى مجتمعاتنا ما لم نخطط لملء المساجد بالحياة الإسلامية الصحيحة حتى يتربى الجيل الجديد فى المسجد بدل أن تخطفه الحانات ونوادى القمار وكهوف الدعارة وشواطئ البحار وحلبات الرقص والتيه فى الشوارع والطرقات .

٢ ــ تكليف بعض العلماء المختصين من منتسبى وزارات الأوقاف أو من أساتذة الجامعات أو من المفكرين الإسلاميين المعروفين بالقاء محاضرات متنوعة مستمرة فى المساجد الكبرى

حتى يكون هذا التوجيه رافداً من روافد تثقيف المسلمين تمهيداً للقضاء على أزمة معاداة الإسلام فى المجتمع الإسلامى، ومن الأفضل أن تسجل هذه المحاضرات فى أشرطة لعرضها فى السوق بسعر تكليف الشريط لتعميم فائدتها بين الناس .

٣ ــ عقد مؤتمر سنوى تشترك فيها نخبة من علماء الأمة الراسخين الصادقين وجمع من المفكرين الإسلاميين من الاختصاصات المتنوعة لمناقشة المشكلات والقضايا المطروحة فى المجتمع الإسلامى خلال السنة . وذلك من أجل توحيد الآراء وحل المشكلات وإعلان النتائج ونشرها على الأمة فى حولية واحدة .

الخامس : وزارات الثقافة والإعلام :

إن مهمة هذه الوزارات تجاه القيام بخدمة الإسلام والقضاء على الأزمات الفكرية ضده خطيرة جداً ، لأنها تسيطر على وسائل جماهيرية مهمة فى الثقافة والإعلام السمعية والبصرية والكتابية ، تصوغ من خلالها أفكار المجتمع وقيمه وتصحح فيها مفاهيمه وتقوده نحو الوحدة الاجتماعية والنفسية . ولابد لهذه الوزارات أن تتقدم لأداء مهمتها وتبليغ رسالتها من خلال المذهبية الإسلامية العامة فى الكون والمجتمع والإنسان عن طريق :

ــ إنشاء مديرية عامة فى كل وزارة ، يسند إليها التوجيه الإسلامى ويعين فيها أحد المختصين فى الدراسات الإسلامية . يقوم

بمعاونته لجنة ثقافية إسلامية من أجل التخطيط الإسلامى للتوجيه الثقافى والإعلامى عبر أجهزة الوزارة وأنشطتها ، لأن التوجيهات المبتورة الحالية لاتمثل تخطيطا علميا وإنما هى توجيهات تقليدية مبعثرة عشوائية ضيقة تظهر فى مناسبات معينة .

هى توجيهات ذات صفة لاهوتية تراثية « فولكلورية » المقصود منها إظهار الإسلام وكأنه دين بالمعنى الغربى الحديث للدين ، لا أنه دستور الوجود وشريعة المجتمع ونظام الأخلاق وحضارة الأمة .

توجيهات تلقى فى معظم الأحوال من قبل أناس لايعيشون تطور الحياة الحاضرة ، ولايدركون خطورة المشكلات التى يواجهها المسلمون ولايعرفون أسلوب العرض ، بل يتبعون أسلوب الخطبة المنبرية والمواعظ الموسمية .

ويعتقد كثير من الناس سواء أكانوا من داخل أجهزة هذه الوزارات أم من خارجها أن التوجيه الإسلامى ليس إلا تلك الخطب والمواعظ . ومن هنا فقد حدثت فى أجهزة إعلامنا فجوة كبيرة أحدثت أزمة خطيرة أبعدتها من أن تكون أجهزة فعالة فى سبيل خدمة عقيدة الأمة ، انطلاقا من الفكرة الخاطئة التى أوهمت الناس من أن المحافظة على الإسلام وتمكينه من تربية الجيل هى من مهمة وزارات الأوقاف فى البلاد الإسلامية ، أما أجهزة الاذاعة والتلفزيون فمهمتها الأساس ثقافية اجتماعية فنية إعلامية .

ومن مبدأ هذه النظرة القاصرة، فقد الإسلام فى المجتمعات الحديثة أخطر الوسائل الجماهيرية فى طريق استئناف حياة إسلامية حقيقية وشحن الأمة بالمعرفة الإسلامية وتربية أبنائها على عقائده ومعرفة أحكامه والالتزام بنظامه الاجتماعى.

ومن هنا تظهر الضرورة القصوى فى إصلاح هذا الخلل العظيم والبدء بتخطيط شامل يشترك فيه أهل التربية والاختصاص لمعرفة وجوه الاستفادة من تلك الأجهزة الإعلامية المهمة التى تطرق الأسماع وتتجسد أمام العيون وتدخل يوميا إلى بيوتنا وغرف نومنا فى أثناء عملنا وراحتنا.

لقد كانت علمنة أجهزة الإعلام الكبرى فى البلاد الإسلامية جزءاً لا يتجزأ من علمنة الحياة الحديثة فى العالم الإسلامى والتى فصلت الدين عن الدولة والتعليم الإسلامى عن التعليم العام، وضيقت دائرة الإسلام فى زاوية ضيقة لاهوتية تراثية من الساحة العامة فى المجتمعات الإسلامية.

ومن هنا فانه لا مناص من أسلمة أجهزة الإعلام فى العالم الإسلامى. وقد يعتقد كثير من الناس، سواء أكانوا ملتزمين التزاما عاميا بالإسلام أم من غير الملتزمين، أن أسلمة أجهزة الإعلام تعنى أن تتحول أجهزة الإعلام إلى مساجد وتكايا وزوايا وحلقات

صوفية فلا نسمع أو نرى فى الإذاعة والتلفزيون بعد اليوم إلا الخطب والمواعظ وحلقات الذكر وقراءة القرآن والأناشيد الدينية.

هؤلاء على التحقيق ، مخطئون ومخطئون جداً .

لأن الإسلام هو الكون بعظمته ، وهو الحياة بكل ما فيها من حب وخير وجمال ، هو المجتمع بمشكلاته ، هو البشرية بآمالها وآلامها .

وإلا كيف يصح قولنا : الإسلام هو دستور الكون والحياة والإنسان .

إن أسلمة الأجهزة الإعلامية تعنى ما يلى :

- الأخبار والتعليقات التى تقدمها لابد أن تكون صادقة ، بعيدة عن التحوير والكذب والدجل ، ولابد أن تكون موجهة لوضع آلام البشرية ومشكلات الأمة الإسلامية أمام أنظار المستمع والمشاهد ، حتى تتحول الأخبار والتعليقات إلى قضية شريفة تذكر المسلم ليل نهار بمأساة أمته والإنسانية جميعاً ، بيد الطغاة والظالمين والمستغلين ، وتصنع منه كيانا عزيزا يمقت الظلم وينحاز إلى المظلومين .

- المسلسلات والأشرطة والتمثيليات والمسرحيات التى تقدمها لابد أن تبرز مشكلات الجماهير المسحوقة وآلامها وآثار حياة

الترف وويلاتها وتجسد حياة الخير والفضيلة وتنفر الناس عن حياة الرذيلة والجريمة .

ولانعنى أن تخلو من مناظر الرذيلة والجريمة لأن الحياة نفسها لاتخلو منها ومن آثارها ، ولكننا نعنى ألا تكون مقصودة لذاتها مزينة الرذيلة والجريمة للناس . وإنما تأتى فى أماكنها دون تضخيم ولا إغراء بحيث تركز حب القيم والمثل الفاضلة فى نفوس الجيل وبغض الانحراف والسقوط اليه ، مع معالجات صائبة وتوجيه تربوى سليم .

ـ الأغانى والأناشيد التى تقدم لابد أن تكون نظيفة فطرية تبنى الرجولة وتربى الذوق الإنسانى والاجتماعى الرفيع وتدعو إلى العاطفة النبيلة والقيم الجميلة ، وتبتعد عن إثارة النزعات الحيوانية الهابطة فتتحول إلى مواخير الدعارة وكهوف الفجور وتشجيع الميوعة وحياة التخنث والضياع .

ـ الأحاديث الفكرية والثقافية والفنية التى تقدم لابد ألا تتحول إلى معاول للهدم وندوات لنشر الإلحاد والتشكيك فى حضارة الأمة والدعوة إلى الاباحية ، بل تكون طريقاً لنشر العلم المفيد والثقافة الصحيحة والفكر النير والفن الرفيع لتثقيف العقل وتربية القلب وتهذيب النفس وبناء الكيان السليم .

ـ تعرض الأشرطة العلمية المتنوعة من أجل تزويد الجيل

بالخبرات واطلاعه على عجائب المخلوقات ودقة صنعها وتناسق أجزائها وانسجامها مع وجوده والتعليق عليها بما يؤدى إلى تقوية العقيدة وتربية الوجدان بربط كل جزء من أجزاء الكون بالخالق العظيم لاتقديمه فى جو مادى مقطوع الصلة بخالق الكون ومبدع الوجود .

وهكذا كل ما يقدم لابد أن يحقق مباشرة أو غير مباشرة الغاية من وجود الإنسان وتربيته على طاعة خالقه وتثقيفه وتعليمه من أجل احترام وحدة المجتمع واكتشاف قوانين المادة وتسخيرها من أجل بناء حياته وحضارته وتقدمه على أسس أخلاقية إنسانية إسلامية متزنة ، لا على أسس مادية حيوانية هابطة ، كما نراها فى إطار الحضارة الغربية التى توجهها الثقافات المادية البحتة التى أبعدت الإنسان عن مجال فطرته وحشرته فى حياة البعد والانفصام عن هداية الخالق .

وأما البرامج الإسلامية المباشرة فيمكن تحقيقها على الوجه الآتى :

— أحاديث إسلامية متنوعة ، غير مملة فى أوقات مناسبة ، تتحقق فيها شروط التقديم الإذاعى والتلفزيونى ، يختار لها من العلماء والمفكرين الذين يعرفون كيف يخاطبون الجيل ويراعون فى خطابهم مستواه وعصره ومشكلاته بأسلوب مشوق يشد الناس

إليه ولاينفرهم عنه ، كما يحصل الآن فى أكثر ما نسمع ونرى من الأحاديث التى تسمى بـ « الأحاديث الدينية » .

– تقديم ندوات ثقافية وفكرية إسلامية تعالج مشكلات الحياة الحاضرة فى ضوء الإسلام بشمولية وعمق ، يشترك فيها العلماء والمفكرون الذين لهم وزنهم العلمى والفكرى من أجل تقديم مادة معرفية غزيرة إلى الجيل الجديد ، تقوم على أساس المنطق العصرى السليم حتى يوقن أن إسلامه هو دستور حياته وقاعدة ثقافته وحضارته وحلال مشكلاته ، وحتى تنتهى أزمته المضادة لإسلامه وخصائص حياة أمته ، فيتحول إلى جيل موحد الفكر والاتجاه يبنى حياته الحاضرة بإيمان وتضحية وتخطيط وفاعلية .

– استحداث برنامج يتكفل ببيان الأجوبة الصحيحة لأسئلة الناس حول دينهم ومعاملات حياتهم اليومية من خلال منهج فقهى واقعى مرن يظهر يسر الدين ، وسماحة الإسلام ويبتعد عن التعصب المذهبى والطائفى ولايضيق الواسع على الناس .

– تقديم المسلسلات والأشرطة والمسرحيات والتمثيليات التى تجلى للمجتمع قيم الإسلام ونمطه الاجتماعى وخصائصه الحضارية ، وتضع أمام الجيل الجديد نماذج من تاريخه المشرق وحياة رجالاته الصادقين وجهادهم الدائم لإعلاء الحق ونشر الفضيلة والحكم بالعدل والقضاء بالحق والبحث عن الحقيقة وتسخير قوانين المادة والحرص على اتباع المناهج السديدة فى العلم والثقافة والفكر .

– تقديم الأناشيد الإسلامية التى تثير الهمم وتقوى العزائم وتدفع الجيل الجديد إلى التمسك بالفضائل وصنع الانتصار لاستخلاص الحقوق وطرد الأعداء من البلاد وعدم تمكينهم من رقاب المسلمين واحتلال أرض الإسلام .

– الاهتمام ببرامج الأطفال وتطعيمها بالكلمات والقصص والتعليقات الإسلامية التى توجههم إلى الخير وتربى فيهم الإحساس بانتمائهم إلى الإسلام، وتعزز فيهم حب الخير والعمل والفضيلة والبطولة .

وبعد :

فتلك هى بعض الخطوات السديدة فى علاج التردى الذى أصاب الحياة الإسلامية تمهيدا للقضاء على أزمة المثقفين ، يمكن تطبيقها فى أوضاعنا الإسلامية الحالية ، من حيث هى حل مرحلى سريع يحول بين أجيالنا الصاعدة وبين مزيد من التردى والبعد عن الإسلام .

أما إذا أردنا الوصول إلى تنمية إسلامية شاملة للحياة كلها – وهى التى يريدها الإسلام – فلابد أن نصل إلى ذلك من خلال تخطيط دقيق وعمل متكامل متواصل ، وتطبيق شامل لصياغة المجتمع الإسلامى كله صياغة ربانية كاملة شاملة .

محتويات الكتاب

من آثار المؤلف

- حقيقة البابية والبهائية، بغداد الطبعة الرابعة عام ١٤٠٠ ﻫ
- الألوسى مفسرا (رسالة ماجستير) بغداد - ١٣٨٩ ﻫ
- الرازى مفسرا (رسالة دكتوراه) بغداد - ١٣٩٤ ﻫ
- دراسات فى أصول تفسير القرآن - الثانية - الدار البيضاء عام ١٤٠٤ ﻫ .
- نظرات فى الاقتصاد الإسلامى (كتيب) بغداد - ١٤٩٩ﻫ
- جمال الدين الأفغانى المصلح المفترى عليه - بيروت - ١٤٠٣ ﻫ .
- منهاج التغيير الاجتماعى فى الاسلام - بيروت - ١٤٠٣ ﻫ
- المذهبية الإسلامية والتغيير الحضارى - الدوحة - ١٤٠٤ﻫ
- رسائل وبحوث ومقالات متنوعة فى الفكر الإسلامى الحديث ، منشورة ضمن « السلسلة البيضاء » والمجلات الإسلامية والثقافية فى العالم الإسلامى .

دار الصحـــوة

للنشـر والتوزيـع

٧ شارع الســراى بالمنيــل ـــ القاهــرة

تليفــون : ٩٨٧٩٢٤

رقم الإيداع ٥٠١٦/٨٤

تـــم بحمـــد الله

دار العدالة
للطباعة والنشر والتوزيع
٣٨ شارع الإخلاص من شارع الفيوم دار السلام القاهرة
ت : ٩٨٤٣٣٢